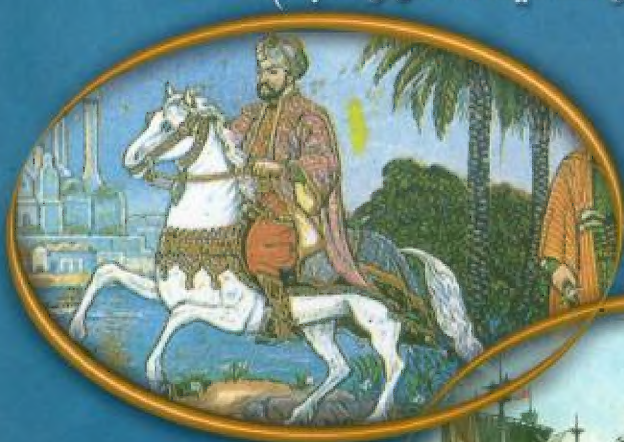
الدكتور عميراوي احميده
أستاذ محاضر ونائب رئيس
جامعة الأمير عبد القادر
قسنطينة

الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر

خلال العهد العثماني

(مذكرات تيدنا أنموذجا)







الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر

خلال العهد العثماني «مذكرات تيدنا نموذجا»

دار الهدى

عين مليلة ☆ الجزائر

الترقيم التسلسلي: 1235 / 2003 دار الهدى

رقم الإيداع القانوني 2196 / 2003 المكتبة الوطنية

ردمك: 9961 - 60 - 501 - 2

شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة - الجزائر

الهاتف: 00 .92 .44 .032 / 47 .95 .44 .032 الفاكس: 18 .94 .44 .032

www.elhouda.com

فهرس الموضوعات بالعربية

فهرس الموضوعات بالفرنسية

مقدمة

توفرت ظروف للأوروبيين ساعدتهم على أن يكتبوا عن الجزائر كثيرا، كالظروف التجارية والدبلوماسية والدينية وحتى السياسية الحربية (القرصنة). وأغلب ما كتبوه كان عن مدنها وفي مقدمتها الجزائر العاصمة ووهران بحكم علاقة هاتين المدينتين بالدول المسيحية. على خلاف ما توفر من ظروف للرحالة المسلمين والأفارقة، ومع ذلك فقد ترك هؤلاء الرحالة المسلمون مادة خبرية تضمنت معلومات غزيرة عن الجزائر تختلف عن المادة الخبرية التي تركها الرحالة الأوروبيون، فمثلا وصف أبو الحسن علي التمقروتي بن عبد الله محمد الجزولي المغربي وهو من واد درعة (ت 1595)[1] الجزائرَ بأحسن الأوصاف؛ على خلاف ما وصفها بعض الأوروبيين أمثال الأب دان الذي نفى أن يكون بها أي نشاط حضاري[2].

ولفئة الأسرى المسيحيين دور هام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية

1- قام برحلة رسمية باسم الملك السعدي أحمد المنصور إلى اسطنبول. وفي طريقه زار الجزائر وبقي فيها مدة شهرين عام 1589. وترك لنا عملا هاما أسماه: النفحة المسكية في السفارة التركية. لمزيد من المعلومات يراجع: مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979، ص-ص. 16-17، 45 وما بعدها.

2 - Dan, Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, Paris 1637

والسياسية وحتى الثقافية الجزائرية في العهد العثماني. وعلى هذا الأساس لا نحسب أنفسنا على خطأ إن قلنا إن واقع الجزائر الثقافي التاريخي الحالي هو نتاج لمخزون تراثي مجيد، ساهم في وضعه أكثر من طرف؛ جزائري وغير جزائري. فعلى الباحث اليوم أن يدرس هذا التراث ويطوره ويبني منه حقائق دالة؛ لأن التاريخ التراثي متجدد باستمرار ومتواصل؛ وهو حي بين الأجيال. وأن لكل جيل رسالة في إثراء هذا التراث؛ لأنه بتأدية هذه الرسالة لا يبقى القول إن تلك الفترة أو تلك تخلو من المادة الخبرية المصدرية.

وفيما يتعلق بتاريخ الجزائر العثمانية فالمصادر هامة ومتنوعة[1]؛ وكلها تعتبر مصادر جزائرية في نظرنا، بالرغم من أن كثيرا منها دونه أجانب؛ الذين يعود لهم الفضل في ترك مادة خبرية عالية القيمة عن طبيعة الجزائر وعن مجتمعها وعاداته وتقاليده في الريف والمدينة؛ نقول إنها مصادر جزائرية بحكم أن كل وثيقة هي ابنة المنطقة التي دونت فيها. وفي تقديري أنه بهذه القناعة التي يجب أن تكون لدى أغلبية الدارسين سيغربل تاريخ الجزائر ويستمر ثريا وعميقا. ولكن كثيرا من الدارسين الأكْفاء —

1- يتبين تنوعها من خلال ما تركه الدارسون من معلومات، ونذكر منهم الباحث حماش خليفة حين قدم لنا كشافا بعنوان: "كشاف الوثائق عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، عدد 13-14، زغوان، تونس 1996

ناهيك عن الدارسين غير الأكفاء- من أبناء الأمة الجزائرية قد قصروا في البحث العلمي، وخاصة في ترجمة الأعمال التي تركها الأجانب، ولم يتحملوا مسؤولياتهم العلمية لأسباب لا يجوز ذكرها في هذا المقام.

وإن كان البعض من الدرسين الجزائريين أمثال أبو العيد دودو وأبو القاسم سعد الله قد ساهموا مشكورين بتقديم دراسات عن بعض الأجانب. حين ترجموا أجزاء من أعمالهم إلى اللغة العربية.

ومن خلال اهتماماتي بتاريخ الجزائر العثمانية، وتدريسي لبعض الجوانب منه؛ مثل **تاريخ المجتمع الجزائري في العهد العثماني** لطلبة الماجستير (جامعة الأمير عبد القادر) تبينت لي أهمية هذا الموضوع، فقررت تقديم شيء عنه. وقد تشجعت كثيرا حين عثرت على إشارة هامة في ما كتبه الباحث القدير عبد الجليل التميمي[1] حين قدم عملا تقديرا للمؤرخ المتخصص مارسيل إمريت فيما قدم له من ترجمة لسيرته الذاتية العلمية؛ فكانت هذه الإشارة حول ما كتبه إمريت عن مذكرات تيدنا. وحين عدت إلى ذلك في المجلة الإفريقية[2] وجدت نص هذه المذكرات ودراسة حولها هما على غاية من الأهمية. وقد رأيت فائدته

1- جاءت هذه الإشارة في ما كتبه عبد الجليل التميمي بالمجلة التاريخية المغربية، عدد 7-8، تونس 1977 تحت عنوان:
« Curriculum et VitÆ de Marcel Emerit », p-p 6-15, 119-120
2 - année 1948.

تكون كبيرة بتقديمه إلى القراء باللغة العربية، على أن يكون هذا التقديم مرفقا بالنص الفرنسي. فحاولت عرضه بالصورة اللاحقة بالرغم من قناعتي فيما يمكن أن يقال إن في ترجمة نص من لغة إلى أخرى خيانة مؤدبة ومفضلة.

لأن الاهتمام بأدب الرحلة، التي هي مصادر شهود عيان، والاهتمام بما تركه الآخرون غير الرحالة من أخبار عن تاريخ الجزائر، يدفع الباحث النزيه إلى المزيد من الدراسة، لأن دراسة مثل هذه الرحلات تنفع الباحث وتساعده على تقديم متعة شيقة للقارئ.

وعلى هذا الأساس اخترنا عنوانا لهذا الموضوع وهو **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا).**
لأن القيام بدراسته شيق، ويكون البحث أكثر اشتياقا لو يقارن بالرحلات العربية إلى الجزائر؛ وهي كثيرة؛ سواء من المغرب الأقصى، أو من إفريقيا. مثلما يكون الموضوع أكثر عمقا لو تقارن هذه الرحلات إلى الجزائر بما قام به الجزائريون من رحلات داخل وخارج بلادهم، وهي كثيرة أيضا.
وقبل عرض الموضوع بما استطعنا ترجمته لنا أن ننبه إلى أربعة أمور هي:
1- إننا تصرفنا في النص بحذف بعض المعلومات لا تتعلق بتاريخ الجزائر.
2- إننا أضفنا معلومات تاريخية رأيناها مفيدة بخدمتها للنص.
3- إن الإحالات المؤشرة بنجمة (*) هي مذكورة في النص أصلا.

4- إننا أرفقنا هذه الترجمة بالنص الأصلي وبلغته الفرنسية مثلما قدمه مارسيل إمريت؛ وهذا تعميقا للمعرفة وتعميما للفائدة.

5 _ المؤشر في الهامش بـــ:

– R.A يعني المجلة الإفريقية طبعة ديوان المطبوعات الجزائية.

– R.H.M يعني المجلة التاريخية المغاربية

ونحاول عرض هذا الموضوع من خلال النقاط الآتية:

أولا: صورة الجزائر في مصادر أوروبية

ثانيا: تيدنا المولد والنشأة

ثالثا: تيدنا الأسير (تيدنا يكتب من زوريخ عام 1785)

رابعا: تيدنا في بلاط باي معسكر

خامسا: تيدنا الوزير

سادسا: مغامرات تيدنا في القصر

سابعا: عقبات في طريق حرية تيدنا

ثامنا: تيدنا يعود إلى بلاده

تاسعا: القيمة التاريخية لمذكرات تيدنا

عاشرا: الخاتمة

أولا

صورة الجزائر في مصادر أوروبية

لم تكن صورة الجزائر في القرن الثامن عشر واضحة جيدا، بفعل أن المصادر العربية والتركية كانت قليلة الأهمية في نظر الأوروبيين. ولكن أغلب ملامح هذه الصورة الكاملة لبلاد الجزائر رسمها الأوروبيون، سواء الرحالة منهم أو القناصل أو الأسرى.

كانت الرحلات الاستطلاعية الأوروبية إلى الجزائر منذ بداية الوجود العثماني فيها، إذ سبق لنيكولاي (Nicolay) أن زار الجزائر عام 1551 وهو من الجغرافيين. وكان من أفراد حاشية الملك هنري الثاني، حيث قدم وصفا لمدينة الجزائر وبجاية وعنابة وهو في طريقه إلى اسطانبول[1].

ومن الرحالة نذكر الدكتور شو (Shaw)[2] الإنجليزي الذي كان

1- ألف كتابا بعنوان:

Les quatre premiers livres des navigations orientales, Lyon 1568

2 - طبعت أعمال شو باللغة الإنجليزية مرتين (اكسفورد عام 1738، ولندن عام 1757). مثلما ترجمت هذه الأعمال إلى الفرنسية مرتين (الأولى طبعة لاهاي عام 1743 بعنوان: (Voyages de Monsieur Shaw dans la Régence d'Alger). والثانية طبعة باريس عام 1930. هذه الأخيرة كانت في 405 صفحة وبعنوان:

Shaw (docteur), Voyage dans la Régence d'Alger, traduit de l'Anglais par Mac Carthy, Paris 1830.

كاهنا بالوكالة الإنجليزية في الجزائر من عام 1720 إلى 1732. إذ استطاع شو أن يقدم عملا نادرا بعنوان: **جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق**، في جزئين تضمنا أوصافا دقيقة وتفاصيل عن بلاد الجزائر، وخاصة عن ريفها ومنتجاتها وآدابها العربية. مثلما تضمن قليلا من المعلومات عن الحياة السياسية والإدارية.

ويعدُّ الدكتور شو من الدارسين والرحالة الذين حاولوا التحدث عن بلاد الجزائر خلال النصف الأول من القرن 18 إذ رسم خريطة وضّح عليها معالم جغرافية، وحدد بها حدود إيالة الجزائر، وخاصة حدود بايليك الشرق الجزائري[1].

و بتكليف من أكاديمية العلوم زار جان أندري بايسونال (Peyssonnel) الشرق الجزائري خلال عامي 1724 و1725 وقدم عملا هاما عن الجزائر، تضمن معلومات جغرافية وطبيعية واجتماعية قيمة[2].

أما بريس الذي تولى مهام قنصل لتمثيل بلده إنجلترا في الجزائر سنة

1- لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: علاقات الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، مطبعة البعث، 2002، ص- 15 وما بعدها.

2- Peyssonnel. et. Desfontaines, Relation d'un voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, 2 t, Gide, Paris 1838.

ولبيسونيل رواية عن سفره إلى شمال إفريقيا غير منشورة ومحفوظة في مكتبة افينيون. مخطوط رقم 1373.

1768 فقد قدم رواية في خمسة أجزاء تبدو قليلة الأهمية بالنسبة إلى تاريخ الجزائر العثمانية ولكنها تبقى مصدرا هاما في خدمة هذا التاريخ[1].

وأما فرنثيسكو خيمينيث (مولود عام1685)[2] وهو من الآباء البيض الأسبان الترينيتاريين الذي زار وهران بعد أن استرجعتها أسبانيا عام 1732 (استولت أسبانيا على وهران عام 1509. ثم استرجعتها السلطة العثمانية عام 1708 إلى غاية عام 1732 في عهد الباي مصطفى بوشلاغم. وأخيرا استرجعها الباي محمد الكبير نهائيا عام 1792)[3]. وقدم ملاحظات هامة عن الجزائر ووهران خلال رحلته إليهما التي دامت من عام 1717 إلى عام 1720، حيث دون أعماله في سبعة مجلدات، خصص ثلاثة منها لهذه

*1 - Bruce (J.), Voyages aux sources du Nil, pendant les années 1768-1772, traduit par Castera, Paris, 1790-1791, 5 volumes. (cité par Marcel Emerit, in. R.A. année1948)

2- أهمية أعمال فرنثيسكو خيمينيث ليست في حجم المادة التي تركها وإنما في ما تضمنته من معلومات دقيقة بحكم مركزه الديني ووظيفته الرسمية الدينية التي تولى من خلالها مداواة الأسرى الأسبان وافتدالهم، والتفاوض مع رجال السلطة العثمانية في كل ما يتعلق بالأسرى. إذ هو الذي أسس مستشفى سان خوان دي ماتا في تونس لهذا الغرض. لمزيد من المعلومات يراجع: ميكال دي إيبلزا والهادي الوسلاتي، "ملاحظات أب أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 12، تونس 1978، ص-ص. 191-201

3- فيما يتعلق بتحرير وهران يستحسن مراجعة، مولاي بالحميسي "تحرير وهران في 1708"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد 9، الجزائر 1970.

الرحلة. والأربعة الأخرى خصصها لتونس. عرض فيها معلومات نادرة عن ظروف الأسرى المسيحيين في وهران، وقارن ذلك بظروف الأسرى المسلمين في أسبانيا. وقد تحادث مع الباي مصطفى بوشلاغم في هذا الموضوع. وسعى لبناء مستشفى في وهران، ولكن الباي رفض هذا الطلب. ولم يمنعه هذا الرفض من تقديم معلومات كثيرة، منها ما تعلق برغبة هذا الباي في دفع بعض الأسرى إلى اعتناق الإسلام؛ بل أن الباي حاول أن يجعل أحدهم خزندارا. وهو الأمر الذي تكرر مع الباي محمد الكبير حين أسند مهام وظيفة الخزندار إلى تيدنا. وكانت أعمال خيمينيث من المصادر الهامة التي وظفها جان أندري بايسونال فيما قدمه عن الجزائر من معلومات تاريخية.

وبالمقابل فإن أعمال فانتير دي برادي بالنسبة لتاريخ الجزائر العثمانية هي ذات قيمة عالية. وقد نشرت في المجلة الإفريقية[1]. إذ زار العالم فانتير دي برادي الجزائر عام 1789 وقدم عملا بعنوان: « Notes sur Alger » تضمن معلومات قيمة عن هذا البلد، من بينها ما يتعلق بالجزائر العاصمة التي قال عنها إن بها 16000 بستان. وبها 5000 مسكن بما

1 - لمزيد من المعلومات يراجع:
Venture De Paradis, « Alger au 18è siècle », présentation de Fagan (E.), in. R.A. n° 39, année 1895, p-p. 265-314. et, R.A. n° 40, année 1896, p-p. 33-78, 256-277.

فيها 180 مسكن لليهود. وقدر عدد سكانها ما بين 25 إلى 30 ألف نسمة. وقال إن العدد قد يصل إلى 50 ألف ساكن بالنظر إلى تقدير عدد النساء اللواتي لا يخرجن من البيوت (6000 كراغلة و300 تركي و7000 يهودي و2000 أسير و32000 من العرب)[1]. على خلاف فيلهلم شيمبر الذي قال بوجود 15000 بناية و100000 ساكن[2]. ومهما يكن فهذا العمل يعد من المصادر الأساس لخدمة تاريخ الفترة العثمانية في الجزائر.

مثلما هي أعمال هايدو[3] ذات القيمة العلمية الراقية؛ إذ قدمها باللغة الأسبانية تحت الرعاية الدينية الكاثوليكية عام 1608 وترجمت إلى الفرنسية بعنوان: (Topographie et Histoire générale d'Alger) وتناولت خمسة محاور. المحور الأول حول طبوغرافية الجزائر (Topographie d'Alger) والثاني تناول حكام الجزائر "ملوك الجزائر" (l'épitomés des rois d'Alger) والثالث حول الأسر (La captivité)

1- يبدو جانب من هذه الإحصائية غير دقيق بالنظر إلى تناسب عدد مساكن اليهود الـ 180 مع عددهم البالغ 7000 فرد، لأنه على أساسه يكون قرابة 40 فردا في البيت الواحد.

2- أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، ص. 12.

3- لمزيد من المعلومات يراجع:
Fray diego de Hedo, « De la captivité à Alger », traduction de l'Espagnole par Moliner-Violle, in. R.A. n° 39, année 1895, p-p.54-103, 199-258, 321-367. n° 40, année 1896, p-p. 5-32. n° 41, année 1897, p-p. 153- 184.

والرابع حول الشهداء (Les martyres) والخامس حول المرابطين (Les Marabouts).

وقد تبنى وأعتمد المجلس الأعلى الديني الكاثوليكي لمملكة سيسيليا هذا العمل. ووافق على طبعه ونشره الملك نفسه عام 1610 ولكنه نشر عام 1612. ومن غير المستبعد أن تكون الموافقة جاءت بعد حذف أو تعديل أو زيادة بعض المعلومات التي كانت تمس ما يتعلق بالمسيحيين.

وقد تناولتُ المحاور الثلاثة الأخيرة وهي العبودية المسيحية في الجزائر. وكتبت على شكل حوار دار بين أنتونيو وسوزا. وسبق أن ترجم القسم الأول طبوغرافية الجزائر كل من مونرو وبربريقر(Monnereau) (Brebrugger)[1] وترجم دي غرامون (De Grammont) القسم الخاص بملوك الجزائر[2].

وقد عرض هايدو معلومات تثير الانتباه، ومن بينها هروب أتراك عثمانيين من الجزائر إلى إيطاليا وأسبانيا، مرفقين بمسيحيين، إذ حدث في إحدى المرات أن هرب 25 مسيحي يوم 16 جويلية عام 1579[3].

وكان الرحالة الآخرون علميين طبيعيين متخصصين في النبات ومن

1 -R.A. année 1870-71

2 -R.A. année 1880

3- لمزيد من المعلومات يراجع: R.A. n° 39, année 1895, p-p. 85-86

بينهم عالم ديفونشين الذي تجول في بلاد الجزائر ما بين سنتي 1783 و1784حيث زار كلا من الجزائر ومعسكر وتلمسان، وترك لنا رواية عن سفره إلى هذه المناطق، حيث سمحت له حماية الحكومة المحلية بإتمامها صحبة صانع ساعات من دوفينا الذي خدم البايليك مدة عشرين سنة، وهو الشخص الذي أشار إليه تيدنا في مذكراته، (مثلما سيأتي الحديث عنه).

ويعتبر عمل ديفونشين وثيقة هامة لمعرفة أنواع النباتات والمناجم في الغرب الجزائري. فهي ذات أهمية خاصة لما تضاف إلى أدب الرحلات وتقارن بما قدمه تيدنا. ومن غير المستبعد أن تكون سلطة الاحتلال الفرنسي قد استفادت من هذه المعلومات، ووظفتها في استغلالها للموارد الطبيعية في الجزائر.

أما القس بواري[1] فقد قدم عملا هو الآخر عن زيارته إلى الناحية الشرقية من بلاد الجزائر، ولكنه أضفى على كلامه إسهابا دينيا مسيحيا.

فعن طريق هذه الرحلات والدراسات عرفنا سر اهتمام الأوروبيين بالجزائر، فالألمان مثلا ترجموا بدورهم كتبا؛ منها كتاب الرحالة الإنجليزي

*1- Abbé Poiret, Voyage en Barbarie.. pendant 1785 et 1986, 2 volumes.

وفيما يخص الجزائر المدينة، يمكن تقديم الوصف الذي قدمه الأمير فو وقد نشره مارسيل إمريت، مع بيانات. لمزيد من المعلومات يراجع: R.A. année 1940

توماس شو الذي عنوانه "رحلة في ولاية الجزائر سنة 1765". وترجموا كتاب الشاعر الإيطالي باناتي سنة 1824 الذي عنوانه "رحلة إلى سواحل البرابرة"[1].

وقام قبله تاسكا الإيطالي برحلة مرافقا السفير الفرنسي دي بريف(De Brèves) من مصر إلى الجزائر عام 1606[2].

ولم يقتصر الألمان على الترجمة بل ألفوا كتبا كثيرة عرفتنا أشياء هامة عن المجتمع الجزائري آنذاك، وعن عدد السكان وعدد الأسرى المسيحيين. وعدد اللغات السائدة آنذاك في الجزائر العاصمة، وهي العربية والتركية والأسبانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية والهولندية. وقدم من جهته لوجيه دي تاسي دراسة قيمة عن الجزائر ونشرت عام 1725[3].

واهتم من جهته الألماني سيمون بفايفر (ولد سنة 1810) الذي أسره رجال الإنكشارية في اليونان ونقلوه إلى أزمير. ثم نقل إلى الجزائر برفقة

1- لمزيد من المعلومات يراجع: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص-ص. 8-9

2- لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص-ص. 174-176.

3- لمزيد من المعلومات يراجع:
Laugier de Tassy, Histoire du Royaume avec l'état présent de son gouvernement, Amesterdam, 1725.

عدد من العبيد عام 1825[1] على متن سفينة شراعية حربية جزائرية يقودها إنجليزي اعتنق الإسلام ويسمى عمر. وبعد 25 يوما وهي مدة الرحلة من أزمير إلى الجزائر وجد بفايفر نفسه في النهاية يمارس مهنة الطبخ في بيت خزناجي الجزائر. لكن مهنة بفايفر الحقيقية كانت الطب؛ فصار طبيب الخزناجي الخاص. وتولى في أواخر وجوده في الجزائر مدة أسبوعين منصب خزندار لباي التيطري؛ المهم دام أسره في الجزائر 5 سنوات؛ إلى غاية يوم 16 سبتمبر 1830 وبعدها عاد إلى بلده ألمانيا، وكتب ونشر عام 1832 مذكراته بعنوان "**رحلاتي وسنوات أسري الخمس في الجزائر**". وتعتبر مذكراته هذه من المصادر الهامة في تاريخ الجزائر أواخر العهد العثماني بها، وبداية الاحتلال الفرنسي لها[2].

ونفس الشيء تقريبا حدث مع مواطنه الألماني فندلين شلوصر الذي ارتحل إلى البرازيل للبحث عن العمل في المناجم لكنه عاد إلى ألمانيا، ومنها توجه إلى فرنسا ثم إلى الجزائر وانضم إلى فرقة عسكرية أجنبية تحت أوامر

1 - كان الأسرى ينقلون إلى الجزائر لاستغلالهم وللمتاجرة بهم عن طريق الفدية.

2- لمزيد من المعلومات يراجع: سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، ترجمه من الألمانية، أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1974.

الجيش الفرنسي[1]. وفي شهر أفريل 1832 ألقى عليه بعض الجزائريين القبض بالقرب من الجزائر العاصمة وباعوه إلى الشيخ الثائر ابن زعمون[2] ومنه سلم إلى شيخ الطريقة القادرية بالأخضرية وهو علي بن عيسى[3]، ثم نقل إلى الشرق وانتهى به المطاف أسيرا في قصر الحاج أحمد باي حيث بقي مدة 5 سنوات تولى خلالها مناصب كثيرة كان آخرها العمل في المدفعية للدفاع عن المدينة ضد الفرنسيين الذين هجموا عليها عام 1836 و1837[4].

1- الملاحظ أن كثيرا من المرتزقة انضموا إلى الجيش الفرنسي من الدول الأوروبية، لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: من تاريخ الجزائر الحديث، مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة 1999، ص-ص. 130-142

2- كان ابن زعمون قائد المقاومة الجزائرية ببداية الاحتلال في وسط الجزائر متزامنا مع قائدي المقاومة في الغرب والشرق الجزائريين وهما الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي.

3- خلف علي بن عيسى المغربي الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الجرجري مؤسس الطريقة الرحمانية؛ ودامت خلافته 43 سنة إلى أن توفي عام 1836. ولم تضعف الزاوية الرحمانية إلاّ بعد عام 1857. وكانت لالا خديجة أُمّ لالا فاطمة وزوجةَ علي بن عيسى. لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: جوانب من السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية بالشرق الجزائري، دار البعث، قسنطينة، 1984. ص-ص. وكذلك: رسالة الطريقة القادرية في الجزائر، دار الهدى 2003، ص. 28

4- لمزيد من المعلومات يراجع: فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمه من الألمانية، أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980

وكذلك فعل مواطنه الألماني فيلهلم شيمبر (1804-1878) بالجزائر الذي زارها عام 1831 وبقي فيها 10 أشهرا. وألف كتابا صغيرا عن رحلته إلى هذا البلد، تحدث فيه عن مدينة الجزائر وعن نسائها وعدد سكانها. وتحدث عن تجارتها، وبداية السياسة الفرنسية فيها وجرائم هذه السياسة.

وكذلك فرديناند فينكلمان الذي زار الجزائر ونشر عام 1832 كتابه عن "تاريخ الجزائر عام 1830". وبعده دون كل من هرمان هاوف وموريس فاغنر وغيرهما أشياء هامة عن الجزائر. وقد قدم أبو العيد دودو دراسة عن أعمالهم مثلما ذكرنا.

ونجد ألمانيا آخر؛ لكنه ليس أسيرا وإنما كان ضابطا محاربا متطوعا في جيش الاحتلال الفرنسي للجزائر وهو الأمير شفارتسنبيرغ الذي ألف ونشر عن الجزائر عام 1837. وكذلك الطبيب العسكري شانبيرغ الذي عمل في صف الجيش الفرنسي وكتب أشياء عن الجزائر ونشرها عام 1837. وعلى هذا الأساس فمن الأهمية بمكان استغلال هذه المذكرات في الدراسة للفترة الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر[1].

أما النمسا فقد كانت على صلة اهتمام بشمال إفريقيا، لهذا باركت الحملة الفرنسية على الجزائر، وإن كان لذلك دافع سياسي يتمثل

1- سيمون بفايفر. ص-ص. 6-8

في تحويل اهتمام الحكومة الفرنسية الثورية إلى مناطق أخرى غير أوروبية. أي إبعاد الثورة عن الأنظمة المحافظة مثل النظام الملكي في النمسا الذي قدم للحملة الفرنسية مساعدة بأن أرسل بعض الضباط أمثال فردريك شوارتز امبرغ (Frédéric Chauartz Emberg)[1] الذي شارك في المعركة عام 1830. ومن أقوى الاحتمالات أنه كتب مذكرات عن الجزائر ولم نتمكن من معرفتها لحد هذا التاريخ.

وبمجرد أن احتلت فرنسا الجزائر تضاعف اهتمام الألمان بها، ليس حبا في الجزائر وإنما لتشجيع الهجرة الألمانية إليها قصد استثمارها. (وقد يكون لمنافسة فرنسا في بعض المواطن في إفريقيا. وأيضا قد يكون لهذا علاقة بما كان يجري على حدود البلدين فرنسا وألمانيا). وهو ما حدث فعلا حين جاءت هجرات ألمانية بتشجيع من منظري تيار السان سيمونية الذين حاولوا تطبيق شعار هو "ليكن الاحتلال فرنسيا ولكن الاستيطان يجب أن يكون أوروبيا". لأن موضوع الهجرة الاستيطانية إلى الجزائر كان موضع اهتمام الفرنسيين خاصة، والأوروبيين عامة. لهذا وضعت مشروعات من طرف التيارات الفكرية؛ وكان في مقدمة تلك التيارات السان سيمونية الممثلة في رئيسها الأب الروحي أنفانتان (Enfantin) الذي

1- Nettement (A.), Histoire de la conquête d'Alger, Jacque le Coffre, Paris 1856, p. 289.

اعتبر كلا من الجزائر والقاهرة البوابة الواسعة للدخول إلى العالم العربي الإسلامي الواسع. لهذا لم يتوان في تكريس المشروع الضخم والخاص باستعمار الجزائر وتعميرها بهجرة أوروبية واسعة. وكانت قناعته مركزة على أن تكون الهجرة أوروبية وبشكل منظم ومن ألمانيا خصوصا[1]. في حين شاطره غيره أن تكون أوروبية ومنظمة؛ ولكنه فضل الأيرلنديين عن الألمان بحكم أنهم كانوا أكثر الشعوب الأوروبية كدّا وتحملا لمتاعب الهجرة والاستيطان وإنتاجا في أمريكا[2].

لهذا جاء الرحالة العلماء الألمان إلى الجزائر؛ فبالإضافة إلى ما ذكرناهم سابقا جاء الأمير بوكلير موسكاو الذي زار شرق الجزائر عام

1 – تعود اهتمامات السان سيمونين بالجزائر إلى فترة ما قبل الغزو الفرنسي لها. إذ فور احتلالها كان لهذا التيار حضور قوي في توجيه السياسة الكولونيالية. وكان لهذا الأب أنفانتان دور فاعل في الهجرة الأوروبية إلى الجزائر، للمزيد من المعلومات يراجع كل من:

- Marcel (E.), Les saint-simoniens en Algérie, Paris 1941, p-p.85-107.

– وكتابنا: من تاريخ الجزائر الحديث، منشورات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر 2000، ص-ص. 233-240

2-Georges Yver, « Les Irlandais en Algérie », in. R.A. année 1917, P-P. 170-223.

1835. ونزل ضيفا عند الجنرال يوسف المملوك[1] الذي كان من رجال السلطة الفرنسية صاحب النفوذ الواسع في شرق البلاد. وقد ترجمت جزء من أعمال موسكاو من الألمانية إلى العربية بعنوان، سميلاسو في إفريقيا[2].

1- انضم يوسف المملوك إلى الصف الفرنسي قادما من تونس بداية الاحتلال الفرنسي، وكان من الذين ساعدوا السلطة الفرنسية على احتلال مدينة كل من عنابة والدرعان وقالمة والأغواط. لمزيد من المعلومات عن شخص يوسف المملوك يراجع:
Maurice Constantin, La vie du général Yusuf, Gallimard, Paris 1930
ويراجع كذلك: A.M.G.H217, H226

2- قام بترجمة هذا العمل كل من منير الفندري وصحبي الثابتي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس 1989. وقد سبق أن قدم دراسة حول هذه الرحلة أبو القاسم سعد الله، ينظر ما كتبه في: مجلة الثقافة، العدد38 و39، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر 1977. وكذلك في كتابه: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص-ص. 273-290.
وقصة هذا الأمير الرحالة طويلة جدا، فهو من أمراء ألمانيا الأثرياء، ولكنه كان غير مرتاح البال بسبب بعض المشاكل العاطفية التي كانت تعكر صفو حياته، فقرر الهجرة إلى أمريكا، ولكنه في باريس وهو يستعد للتوجه إلى أمريكا غير رأيه واتجه إلى الجزائر "الفرنسية" بتشجيع من رجال السلطة هناك. فجاء إلى عنابة ومنها اتجه إلى تونس. وقد خصص جزءا للحديث عن الجزائر حيث وصف فيه الطبيعة والجمال والمرأة والحيوانات والنباتات، مع ما أصدره من أحكام قساوة رجال السلطة الفرنسية تجاه الجزائريين. وقد أفرد وصفا لمدينة عنابة ولآثارها، مثلما وصف ما حدث وما رأى أثناء مرافقته للجنرال الفرنسي خلال قيامه بحملة عسكرية -

ومن خلال ما دونه أوروبي آخر وهو فرانسوا فيليب دو لاماي تتبين معلومات هامة عن الجزائر العاصمة، فهو ضابط محترف في الجيش الفرنسي وقع في الأسر يوم 10 أفريل عام 1799 وفك سراحه يوم 7 سبتمبر 1800، أي بعد 16 شهرا من الأسر؛ حيث فرضت عليه في الجزائر ممارسة الخياطة. لكن أسره لم يمنعه من الاهتمام بالحياة اليومية للسكان في الجزائر العاصمة والتجسس عليهم ورصد قدراتهم الدفاعية؛ إذ تبين له ضعف المدينة عسكريا، فدعا إلى ضرورة احتلالها لأن الأمر _حسب رأيه_ لا يتطلب إلا قوة ما بين 30 إلى 40 ألف محارب بها يتم احتلال المدينة في مدة 48 ساعة. وبالفعل هذا ما حدث سنة 1830.

مثلما تعرض دو لاماي بالحديث عن وضع سكان المدينة. وقدم لنا جملة من المعلومات من بينها ما قاله عن فئة اليهود بأن الأغنياء منهم لم يكونوا أكثر من ست عائلات هم أصلا من ليفورن. مثلما قال إن عدد الأسرى هم دائما في تناقص بفعل الموت. وقد أعجب بنوعية مياه الشرب العذب الموصل بقناة من المرتفعات إلى الجزائر العاصمة. وأصدر حكما على مدينة الجزائر بأنها تكون أحسن بلاد في العالم لو تكون بيد حكام نيّرين[1].

= ضد سكان المنطقة نحو مدينة قسنطينة؛ وقد أفرد هذا الأمير هذا الوصف في رسائل وجهها إلى أصدقائه في ألمانيا من عنابة في شهر أفريل عام 1835.

1- لمزيد من الاطلاع تراجع الدراسة التي قدمها: =

ولم يكن الأوروبيون هم وحدهم الذين اهتموا بالجزائر، بل كان الروس والأمريكيون أيضا؛ ففي عهد كاترينا الثانية[1] كانت الضرورة دفعتها للبحث عن مناطق استراتيجية في حوض البحر المتوسط لهذا أرسلت ضابطا مخبرا للاتصال بدول شمال إفريقيا وخاصة الجزائر. حيث ألف هذا الضابط كتابا دون فيه معلومات قيمة عن الجزائر عام 1787[2]. وقد يكون هذا من الدوافع التي جعلت الحكومة الروسية تبارك الحملة الفرنسية، وترسل متطوعا من الهندسة العسكرية الروسية برتبة عقيد وهو فيلوزولوف ليشارك في الحملة الفرنسية[3] ومن المحتمل أن يكون قد ترك مذكرات عن الجزائر.

أما الأمريكيون فبمجرد أن حصلوا على استقلالهم من بريطانيا

- Marcel Emerit, « Alger en 1800, d'après les mémoires inédits de Le Maye », in, R H M, n° 2, Tunis 1974, p-p. 171-176

1- ولعل اهتمام حكام روسيا بدول شمال إفريقيا هو الذي دفع نابليون بونابرت إلى مراسلة إمبراطور روسيا الكسندر الأول قصد الاتحاد للقضاء على القرصنة المغربية. لمزيد من المعلومات يراجع ما كتبناه في: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827 ــ 1840)، دار البعث، قسنطينة، 1987، ص-ص. 26-27.

2- لمزيد من المعلومات يراجع:
Marcel Emerit, « Description de l'Algérie en 1787, par l'officier russe Kokovtsov », in. R H M, n° 4, Tunis 1975, p-p 209-212

3 - لمزيد من المعلومات ينظر:
Nettement (A.), Histoire de la conquête d'Alger, p. 674.

فقدوا حمايتها ووجدوا أنفسهم أمام خطر "القرصنة" المغربية، حيث تعرضت سفنها "للقرصنة" الجزائرية؛ مثلما حصل عام 1785 حين تم الاستيلاء على سفينتين أمريكيتين. وبعد هذا التاريخ تمكن بحارة الجزائر من الاستيلاء على 13 سفينة أمريكية وأسر 100 بحارا أمريكيا، فأرسلت أمريكا مفوضا إلى الجزائر عام 1786. وقد قدمت تقارير أمريكية عن الأيالة الجزائرية وخاصة عن بحريتها. وفي تاريخ 5 سبتمبر عام 1796 تم عقد معاهدة بين الجزائر وأمريكا دفعت الولايات المتحدة الأمريكية بموجبها ضريبة مقابل السماح لها بحرية التنقل والمتاجرة في البحر المتوسط[1]. وتم بعدها تعين قنصل أمريكي في الجزائر ومنهم القنصل وليام شلر (1816-1824) الذي ترك لنا مادة تاريخية عالية القيمة عن الجزائر وعن حملة إكسماوث البحرية ضد الجزائر عام 1816[2].

1- لمزيد من المعلومات يراجع: هيفاء معلوف الإمام، "العلاقات الأمريكية-شمال إفريقيا في العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 15، 16، تونس 1979، ص-ص. 63-78. وكذلك، وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980، ص-ص. 154-155. وكذلك ما جاء في الإشارة التي قدمها حماش خليفة، "كشاف الوثائق عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، المرجع السابق وثيقة رقم 3، صفحة 325 من أن سفينة أمريكية وصلت إلى الجزائر بقوة 80 مدفعا.

2- لمزيد من المعلومات يراجع :
Shaler William, Sketches of Algiers, Boston, Century 1826 -

وقد وقع كاثكارت وهو أمريكي أسيرا بعد الاستيلاء على أول سفينة أمريكية "مأريا بوسطن" في جوباليا عام 1785. وقد عمل واسطة بين داي الجزائر وسفراء الدول الأوروبية. وهو الذي ساهم في وضع اتفاقية أبرمت بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية[1].

وكتب كثير من الإنجليز من جهتهم عن الجزائر، نذكر منهم مورقان الذي عاش سنوات عديدة في الجزائر، بجانب قنصل بلاده روبير كول الذي أدار مهامه في الجزائر مدة 40 سنة. فاعتمادا على ما يتبين في كتاب مورقان من وصف لمحاسن الجزائر ولسيرة حكامها ولمجتمعها يمكن القول إن هذا الكتاب يعد انتقادا ضد كل من قدم صورة مشوهة عن الجزائر[2].

بجانب هذه الروايات التي دونها هؤلاء الرحالة يمكن الحديث عن نوع آخر من الروايات تركها الأسرى المسيحيون، فبرغم أن أغلب

= وقد تفضل إسماعيل العربي بترجمة مذكرات وليام شلر إلى اللغة العربية ونشرتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر عام 1982.

للتعرف عن العلاقات الأمريكية الجزائرية يراجع: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص-ص.281- 311

1- لمزيد من المعلومات يراجع: مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

2- لمزيد من المعلومات المستفيضة عن هذا الكتاب الذي طبع عام 1731 في لندن يراجع: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. 1، ص-ص. 313-327

روايات هؤلاء الأسرى كانت تخلو من المعلومات المستفيضة لكنها مهمة جدا، مثلما هو الحال في رواية؛ بل، في مغامرة أسير نشرت سنة 1785 بعد أن تمكنت الطائفة الثالوثية من إعادة حريته. ومحتوى هذه الرواية أن بطلها واسمه سالي قد رافق سيّده الذي انتخب دايا لتونس عوضا عن بن طاهر (؟) فكانت له الفرصة وصف خلالها مراكش ومملكة الجزائر وإيالة تونس في رسائل عديدة. وقد توفي في تونس. تبدو هذه الرواية مليئة بالأخطاء لأنه غير مؤكد أن يكون قائد اسمه سالي قد دعي إلى الحكم في تونس في القرن 18.

وليست أقل غموضا رواية دومان الذي عاش مدة 34 سنة كعبد في بلد الجزائر. وقد حكى دومان قصته ومفادها أن أمواج البحر قذفته إلى الساحل الإفريقي الممتد من وهران إلى الجزائر حوالي عام 1782. فوقع في أيدي القبائل واشتراه الشيخ عثمان الذي كان يحكم في جبال فليسة (الأخضرية). وقضى سنوات طويلة في حياة قاسية عند هؤلاء البربر. ثم اشتراه الداي الذي عامله معاملة أقل قسوة. وقد حُرر بعد حملة إكسموث 1816. ودخل الملجأ الملكي لمرضى العضال.

وقد عمل في روايته على تشويه بصورة خاصة كل الكلمات العربية والتركية، يقول في روايته هذه إنه رأى زملاءه تفترسهم النمور، وإنه لمح في الجزائر سهلا مغطى بالفرسان والدواب والجمال والفيلة. وإنه لاحظ

شجيرات من العنب كبيرة حتى أن الرجل يمكنه معانقتها. وأن عناقيدها لا تقل عن قدم ونصف من الطول. وقدم لنا فصلا عن الأغنام ذات الذنب السمين لأنها كانت سمينة جدا. وأن ذنبها ثقيلة لحد أنها تحمل على خشبة ذات عجلتين ومن دون هذا الاحتياط تلتصق أصوافها التي يبلغ طولها 15 إصبع بالأوساخ والأشواك وتمنعها من المشي.

وأراد دومان (أو مترجمه كيسني) من هذا الوصف تقديم صورة للعذاب المرهب الذي يتحمله العبيد في الجزائر. من دون شك أنه كان يريد إثارة شفقة الفرنسيين عليهم ليجمعوا التبرعات أو الصدقات لافتدائهم أو لمجرد إتاحة الفرصة لتأليف كتب للحيطة والعبرة من أجل إعادة الأسرى الأوروبيين.

وفيما يتعلق بموضوع الأسرى فقد قدمت دراسات كثيرة نذكر منها ما قدمه أحمد توفيق المدني حين قال إن الجزائر وأسبانيا اتفقتا عام 1773 على أن يطلق أسيرين مسلمين مقابل أسير أسباني، وكانت النتيجة أن تم إطلاق 1106 أسير مسلم مقابل 570 مسيحي[1]. وفي أكتوبر 1778 تم

1- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا (1492-1792)، ط. 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص-ص. 509-510. لمزيد من التعرف عن الأسرى المسيحيين في الجزائر العاصمة والأسرى المسلمين في وهران التي يحتلها الأسبان يراجع:
Alonso Acero, « relaciones Oran-Argel a fines del quinientos : desertors, renegados y cautivos en la frontera de Berberia », in. R.H.M, n° 99-100, Tunis 2000, p-p. 225-235

الاتفاق على تبادل الأسرى فأطلقت بموجبه أسبانيا 1200 أسير مسلم وأطلق الجزائريون 712 أسيرا مسيحيا.

وهناك رواية كتبها أسير حرر بسرعة وهو الكاتب الإيطالي بانيني[1] وهي رواية سطحية اعتقد المؤلف أنه زينها بسمات العقل والاستطرادات. وكان لهذا الكاتب الذي دعا إلى حملة ضد الجزائر، وإلى تأسيس مستعمرة أوروبية على الساحل الإفريقي تأثير سياسي أكيد على الرأي العام آنذاك، خاصة بعد أن استثمر كتابه عن التجارة الأوروبية في إفريقيا. والذي نشر هذا العمل هو القس راينال[2]. ولكنه لم يقدم لنا سوى معلومات في القرن التاسع عشر عن الجزائر عامة. وعن الداخل بها خاصة ، خلاف ما قدمه لدينا مثلما سنرى.

- ولمزيد من التعرف عن لأسرى الجزائريين في البلاد المسيحية يراجع حماش خليفة، المرجع السابق، رسالة رقم 48 ، ص. 314 حول محاولة افتداء صالح باي لأسير جزائري في جنوة عام 1774. وكذلك رسالة رقم 49، ص. 314 حول الأسرى الجزائريين. ورسالة الحاج محمود الذي أسره النيوتاليون مدة 4 سنوات رقم 212، ص. 358.

1 - نشرت بالإيطالية، ثم ترجمها إلى الإنجليزية بلاكيار (Blaquiére)، وأخيرا ترجمت من الإنجليزية إلى الفرنسية ونشرت من دون كاتب تحت عنوان: Relation d'un séjour à Alger, Paris 1920 ولم يحدد المؤلف تاريخ سفره ولكن إلى أن دوبوا ثانفيل الذي كان [illegible] فرنسا في الجزائر.

2 - Raynal, Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des éropéens dans l'Afrique, Paris 1826

وخلال الفترة الممتدة من عام 1818 إلى عام 1820 زار كل من هورنمان (Horneman) وباكو (Bacho) منطقة الغرب الليبي والشرق الجزائري، وتركا لنا معلومات هامة عن الحياة السياسية المحلية[1]. وزار كذلك الجزائر المؤرخ الأسباني مارمول[2]. ومكث رهباندر في مدينة وهران عام 1788 أيام الاحتلال الأسباني لها، وهو قنصل ألماني: حيث خصص جزءا من مذكراته للحديث عن الإدارة التركية. وعن الحياة الاجتماعية الجزائرية[3].

وتتبين من خلال هذه الرحلات والمذكرات أهمية مدينة الجزائر في دائما، وفي نظر الأجانب، لهذا كانت تتعرض باستمرار إلى هجمات بحرية من دول أوروبية مختلفة. ومن تلك الهجمات كانت الأسبانية عام 1516، 1518، و1541، 1775، 1783. والفرنسية عام 1665، 1688، و1830، والإنجليزية عام 1622 و 1665، 1672، 1816. والهولندية عام 1672.

1– لمزيد من المعلومات يراجع:
John Paul Mason, « Desert Strongman in the East Libyan Sahara (ca. 1820) », in. R.H.M, n° 6, Tunis 1916, p-p. 180-188

2– وترك لنا مادة خبرية عالية القيمة للتعرف عنها ينظر:
Marmol Carvajal, Description générale de l'Africa, traduit en Français par M. Perrot d'Alblaucourt sous le titre: L'Afrique de Marmol,

3 – ترك مذكراته بعنوان:
Rehbibder Von, Nachrichten und Memer Kungen über den Algierschen Staat, Altona 1789-1800.

والدنماركية عام 1770.

هذا عن الرجال الأسرى، هل يمكن الحديث عن نساء أوروبيات وقعن أسيرات في الجزائر؟

جاء في دراسة أبي العيد دودو أن "امرأة سويدية عاشت في الجزائر مكرمة مبجلة، انتقلت إلى إستامبول قبل الاحتلال (الفرنسي) بمدة طويلة"[1]. وقد أفادنا ميشال دي غراس (Michel de Grèce)[2] في روايته "ليلة القصر" بمعلومات قيمة على لسان فتاة من جزيرة تابعة للنفوذ الفرنسي وقعت في قبضة "القرصنة" الجزائرية، فأهداها داي الجزائر إلى السلطان العثماني في أسطنبول، حيث حكت حياة الأسر في قصص مشوقة، في غاية الغرابة والدقة.

1 – الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المرجع السابق، ص. 9
2 - Michel de Grèce, La nuit du serial, Olivier Orban, 1982

ثانيا

تيدنا المولد والنشأة

ولد تيدنا صاحب هذه المذكرات[1] سنة 1758 في يوزيس لانغدوك (Uzes) من عائلة كاثوليكية ميسورة الحال. ومنذ أيام صباه عملت أسرته على أن يكون من علية رجال الدين، فوضعته في مدرسة كاثوليكية، لكنه فر منها ونفر ممن حاولوا إعداده للرهبنة[2]. وأبدى عدم استعداده تماما لممارسة هذه الحياة الدينية، بل وتمادى به الحال إلى الانضمام لفيلق الحامية العسكرية في كورسيكا. لكنه سئم العمل العسكري. وفضل العمل المدني الإداري في وظيفة كاتب لوكيل مقاطعة. ولكن حبّه للأسفار قاده نحو مديني ليفورنا (Livourne) و قاديس (cadix) حيث عاش في منزل أحد أقرباء أبيه.

وفي هذا المنزل صار عشيقا لزوجة قريبه الشيخ. لكن الندم أخذ منه

1 – تحفظ مذكرات تيدنا غير المطبوعة في المكتبة الوطنية بباريس، قسم مخطوطات ف.أ فرنسا رقم 10877. وتحتوي على 140 صفحة. وقد قدمها مارسيل إمريت بعنوان:
« Mémoire de Thédnat, écrites à zurich en 1785 », in. R.A. année 1948, p-p. 157-183, 330-363.

2– بالرغم من نفوره هذا إلاّ أنه بقي وفيا لدينه رغم الإغراءات والتهديدات التي وجهت له مثلما سنرى.

فقرر الانتقال إلى مكان آخر، وممارسة مهنة نقل براميل الخمر من مالاقا إلى مرسيليا؛ على متن سفينة أسبانية وهي التي قبضه قرصان البحر التابعين لداي الجزائر على متنها.

وبما أن العلاقات السياسية كانت بين داي الجزائر وفرنسا حسنة، فقد اتفق على إعادة الفرنسيين المقبوض عليهم عن طريق القنصل الفرنسي هناك، ولكن العلاقات بين داي الجزائر وأسبانيا كانت سيئة لهذا كانت أسبانيا تعتبر دولة معادية لنيابة الجزائر، ومن سوء حظ تيدنا فقد قبض عليه فوق مركب هذه الدولة. لذلك اعتبر أسيرا. ولكنه من حسن حظه أنه اشتراه في الحين باي معسكر الذي كان يحتاج إلى شخص مثقف ومخلص لإدارة منزله. فبقي في قصره وفي خدمته مدة ثلاثة أعوام وسبعة أشهر؛ تدرج تيدنا خلالها إلى أن صار خزندار[1] باي الغرب الجزائري، أي بمثابة

1– يقول فانتير دي بارادي عن الخزندار إنه هو الذي يقوم بحفظ الثروة وترتيبها وتسييرها. كما يقوم بالتفاوض مع الهيئات الأجنبية. يراجع:
Venture De Paradis, « Alger au 18è siècle », présentation de Fagan (E.), in. R.A. n° 40, année 1896, p-p 272-273.
وقد أعادت طبع هذا الكتاب دار بوسلامة بتونس في 178 صفحة.
وفيما يتعلق بمهمة الخزندار فهي لم تكن في نفس الدرجة عند الداي والباي. ففي نظام الداي يكون السلم تنازليا من **الداي فالخزنجي** والآغة **وخوجة الخيل وخوجة بيت المال ثم الخزندار** الخ... بينما يحتل **الخزندار** عند **الباي** في بايلك الغربالمرتبة الثانية. في حين أن سلم الإدارة في بايلك قسنطينة فبعد **الباي** يأتي **الخليفة**: وهو المسؤول عن الضرائب. **قائد الدار**: =

وزير المالية. وقد أجزل له العطاء هذا الباي وهو محمد بن عثمان باشا الملقب في التاريخ بمحمد الكبير[1].

كان تيدنا يرافق سيده الباي في كل تنقلاته. وعلى هذا الأساس تعتبر مذكراته مصدرا هاما وفريدا من نوعه، لأنه عرفنا بسلوك هذا الباي محمد الكبير وبنظام حكمه. وبما كان يحدث من علاقات بينه وبين مختلف شرائح المجتمع الجزائري، من جهة. وبين الجزائر وأوروبا، من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر فقد أخص الباي خادمه تيدنا بعناية فائقة، بل بحب كبير؛ وهو ما لم يكن في صالح تيدنا؛ لأن حب الباي له كان يمنعه

-وهو المسؤول عن أملاك الباي. الآغا: وهو قائد الجيش. الخزندار: مكلف بالإشراف على كل الأموال. باش المكاحلية: المتصرف في فرقة بنادق الباي. باش سراج: مكلف بخدمة الاسطبل. قائد المقصورة: مكلف بحمل جبيرة الباي. قائد السبسي: حامل غليون الباي. قائد الطاسة: مكلف بأواني المشروبات. باش قهواجي مكلف بإحضار القهوة. الباشا آغا: له نفوذ يماثل نفوذ الباي.

1- تولى محمد الكبير منصب الباي عهد الباي محمد عثمان باشا (1766-1791) ومنحه هذا الداي لقب الكبير بعد انتصاره ودخوله وهران نهائيا واتخاذها عاصمة البايلك. لمعرفة شيء عن هذا الباي وعن تحريره لمدينة وهران عام 1791 بعد أن احتلها الأسبان عام 1509 يراجع ما كتبه:

Gorguos (A). « Notice sur le Bey d'Oran », in. R.A. n° 2, année 1857-58, p-p. 28-46, 223-241, et, Gorguos (A). « Expédition de Mohammed El-Kebir, Bey de Mascara, dans les contrés du sud », R.A. n° 4, année 1859-60 , p-p. 347-357

من قبول الفدية واسترجاع حريته.

وكيفما كان الحال بالنسبة إليه فقد أكسبته مغامراته ومعاملاته مع أهل الجزائر في الغرب أشياء كثيرة قلما وجدنا غيره قد حصل عليها؛ إذ كان يجيد أكثر من لغة كالأسبانية والإيطالية وثقافتيهما، ثم أضاف إلى رصيده معالم اللغة العربية وثقافتها، الأمر الذي أهله أن يتولى مهاما في الحياة الدبلوماسية بعد استرجاع حريته وعودته إلى فرنسا. مثلما هو الأمر الذي سهل عليه كي يكتب مذكراته هذه ذات القيمة التاريخية العالية؛ والتي نحن بصدد عرض محتواها بما يمكن ترجمته إلى اللغة العربية من الفرنسية التي نشرها مارسيل أميريت.

وبعد حصوله على حريته وعودته من الجزائر اشتد به الحال فمرض، ووجد نفسه يتسكع في شوارع المدينة، حيث أحس بالحاجة إلى التعبير عن ندمه فدون هذه المعلومات؛ إذ كتبها في إحدى مستشفيات زوريخ (Zurich) لهذا جاءت هذه المذكرات على شكل اعترافات، الأمر الذي يوحي بدرجة الألم والندم التي كان عليها تيدنا.

وفي سنة 1785 السنة التي كتب فيها المذكرات ذهب للاستقرار في صقلية. وبقي لمدة أربع سنوات في بالارما. وتزوج هناك بالآنسة دال فانتو (Del vento) الشيء الذي سمح له بإضافة اسم زوجته إلى اسمه فيما بعد فأصبح (du vent أو duvent) ووُجد في مسينا في السنة التي اندلعت

فيها الثورة الفرنسية[1]. وقد استعمله القنصل لالومان (Lallemant) كاتبا له. ثم جعله نائبا له في السنة التالية. وبعد ثلاث سنوات عُين لالومان في نابلي وقد مُنح منصب حاكم مسينا، وبحكم علاقة تيدنا بهذا الحاكم تمكن تيدنا من حماية ناجحة للفرنسيين حينما بدأت الحكومة النابوليتانية تضطهدهم. وعندما اتحد ملك نابلي مع حاكم صقلية إثر زواجه بامرأة من صقلية اقترح ملك نابلي على تيدنا منصبا هاما فيما إذا تخلى عن وطنه، لكن تيدنا رفض بشدة وفضل الطرد وترك كل شيء يخصه[2].

وانتقل إلى جنوا مع زوجته وابنه الذي كان عمره شهرين. ولم يجد وسيلة أخرى للخروج من هذا العوز سوى طرق باب منزل أبيه البالغ الثمانين سنة. بعد أن سبق وأن قطع علاقاته مع أبيه منذ عشرة سنوات. ولكن الظروف التي كانت تجتازها فرنسا وفرت لهما أن يتسامحا فيما بينهما.

وتكفل العجوز الوالد بزوجة تيدنا وابنه. وتوجه تيدنا إلى باريس حيث جلبت له وطنيته اهتمام المواطنين المهمين الذين أوجدوا له منصب

1- نتج عن الثورة الفرنسية عام 1789 تأسيس نظام جمهوري كان الحكم فيه باسم الشعب لا باسم الله، وكان قائما على حرية التدين بدلا من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلا من التقيد بالأخلاق الدينية والعرف، وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة.

2- الملاحظ عن تيدنا أنه كان شديد الالتصاق بدينه المسيحي وبطاعة والده وبحب وطنه، وقد سبب له هذا الالتصاق متاعب كثيرة.

سكرتير في مكتب لجنة البرقيات في الجمعية الوطنية، وفي الحين عيّن نائبا لقنصل سان ريمو. وقد قدم خدمات إلى جيش كالارمان (Kellermann) بأن أعدّ له كثيرا من المؤن في الأوقات الأكثر شدة[1].

وفي يوم ما بينما كان على رأس من الشجعان تمكن من إنقاذ سفينة فرنسية محملة بقطعتين مدفعتين من قبضة الإنجليز. وقد استحقت مهمته نائب قنصل في سافونا سنة 1799 المدح. وقد عوّض المندوب العام الفرنسي في جنوا بعد مارنغو (Marengo) وبعدها عين نائبا كذلك في المندوبية العامة في ليغوري.

وعندما أعيدت ليغوري (Ligurie) إلى فرنسا احتاجت فرنسا كثيرا إلى مُدراء يجيدون اللغة الإيطالية ويعرفون البلاد أشد المعرفة. لذا فلسنا مندهشين عند رؤية تيدنا قد عين سنة 1805 نائب والي سيفا (Céva) وكانت المنطقة قد نهبها قطاع الطرق. فنظم تيدنا وهو نائب الوالي الملكي مليشيات لمتابعة هذه العصابات والقضاء عليهم. وقد اجتاز الجبل لمدة أربعين يوما، واشتهر خاصة أثناء قبضه على عصابة التنين (B. de dragon) بعد أن طلب منه ووعده رئيس هذه العصابة بأنه سوف يلقي أسلحته إذا

*1 - أخذت كل هذه المعلومات من الملف الإداري لتيدنا — دوفان (Thédenat duvent) المفرط في وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية. وتوجد مراسلاته مع الجنرالات كالارمان وشيرار (Schérer) في أرشيف الشؤون الخارجية، مذكرات ووثائق فرنسا رقم 1965.

جاء نائب الوالي لاستقبالهم شخصيا من دون حرس. ورغم أن تيدنا كان أبا لستة أبناء فقد قبل هذه المغامرة الخطيرة. وبعد هذا الاستسلام انتشر الهدوء في البلاد. وتلقى نائب الوالي المدح بالشعر والنثر من مجالس بلدية سيفا، وقدمت له بعض الترقيات بأن استودع له منصبا في غافيلان (Gavillan) ثم توران (Turin) ولكنه فضل المهمة القنصلية حين عينه الإمبراطور نابليون بونابرت نائب قنصل في الإسكندرية بالقاهرة بناء على رغبته. وقد استفاد تيدنا الشيء الكثير من مصر خلال إقامته دبلوماسيا.

وبما أنه كان خادما أمينا لنابليون بونابرت، خشي كثيرا أن يفقد منصبه عندما وصل لويس الثامن عشر إلى العرش، بعد الإطاحة بنابليون إثر معركة واترلو في منتصف جوان 1815. ولكنه عرف كيف يذكر في الوقت المناسب أنه عمل كعسكري تحت حكم لويس. وأيضا أنه لم يذهب إلى الإسكندرية إلا لرغبته في الحصول على منصب أعلى في القاهرة.

وكان اهتمامه كبيرا ودائما بالبلاد الإسلامية؛ فقد كانت الجزائر أثناء الثورة الفرنسية أحد الممولين لفرنسا بالقمح. وخلال حملة فرنسا على مصر كانت الجزائر طريقا ممكنا للارتباط بجيش فرنسا المحاصر. وفي آخر الأمر فكر القنصل الأول في توجيه قوة التوسع الفرنسية إلى البلاد البربرية. وقد آمن ممثله دوبواز – تانفيل (Dubois- Thainville) بنجاح

تعمل لحملة برية بمساعدة سكان القبائل المضطهدين الذين لا ينتظرون سوى الإشارة لمساعدة نابليون بونابرت[1]. وذهب كل من الجنرال مولان والقائد بارج إلى داي هؤلاء القراصنة الذين لا يمكن إصلاحهم، وقدما له طلبات لدفع تعويضات. ووجها إليه تهديدات خطيرة. وأسرع تيدنا في جمع ذكرياته وجعلها في مذكرة تحت عنوان **نظرة على إيالة الجزائر**

1- دعا نابوليون بونابرت أكثر من مرة الدولَ الأوروبية إلى محاربة الولايات العثمانية في شمال إفريقيا، والقضاء على قرصنتها التي انتعشت أثناء الحروب الأوروبية ما بين عامي 1792 و1815، من ذلك أنه بعث برسالة إلى إمبراطور روسيا الكسندر الأول قائلا: من العار على الدول الأوروبية أن تسكت عن القرصنة المغربية. ينظر:

Testa (B.), Recueil des traités de la Porte ottomane, t.1, Paris 1864, p 444.

(1) كان إصراره كبيرا لاحتلال الجزائر وهو ما يفسر موقفه حين كلف الضابط بوتان (Boutin) عام 1808 بمهمة تجسس قصد إعداد تقرير حول ما يلزم من ترتيبات لاحتلال الجزائر. وتمكن هذا الأخير من تقديم دراسة وافية كانت على مكتب نابليون جاهزة للتنفيذ. حيث تمكن بدقة من معرفة وضع الداي وقوة الجيش العثماني في الجزائر الذي قدّره بـ 6000 عسكري، وأكد أنها لا يمكن أن تجمع في أقل من شهر. ومن غير المستبعد أن تكون السلطة الفرنسية قد استفادت من هذه الدراسة أثناء قيامها بالحملة العسكرية على الجزائر عام 1830. و(...) بوتان من جهته قد تولى مهمات سرية لصالح فرنسا كانت إلى كل من اسطنبول عام 1807. ثم قام بعدها بمهمة إلى تونس ثم إلى مصر حيث قتل فيها عام 1813. للمزيد يراجع: رشاد الإمام؛ سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1980، ص.32. وكذلك:

Nettement (A.), Histoire de la conquête d'Alger, p-p. 12-13.

ووجهها إلى تاليران. وذكر فيها أعمال القراصنة ووحشية "البربريين". وبين أن سلطة الداي والبايات الثلاث قائمة على أقلية من العسكريين ذوي الامتيازات (قطاع طرق حقيقيون ومخربو البلاد) وأن القوّة يدعمها الداي المستبد في الجزائر وقائمة على جُبنِ الدول التجارية المستعدة دائما لدفع الإتاوة[1]. وأن حملة عسكرية مدبّرة أحسن تدبير ستجعلها سيدة

---

1 – كانت دول كثيرة تدفع الضرائب لإيالة الجزائر، إذ قدرت هذه الضرائب عام 1822 بـ 126 ألف بياستر أي بنسبة 29% من مداخل ميزانية الخزينة الجزائرية. لأن القرصنة الجزائرية كانت قوية، فبحسب وليام شالر كانت الجزائر العثمانية قبل عام 1824 تشكل قوةً حربية بحرية في حوض البحر المتوسط بأسطول كان يتكون من الوحدات الآتية:

بارجة بقوة 148 مدفعا.

حراقة (طراد) بقوة 82 مدفعا.

سفينة ذات ثلاثة صواري بقوة 34 مدفعا.

سكونة (ذات صارتين) بقوة 52 مدفعا.

برلاكر (مربعة الأشرعة) بقوة 20 مدفعا.

اكسيكس (ثلاثية الصواري) بقوة 10 مدافع.

أي بمجموع 346 مدفعا. ينظر: مذكرات وليام شالر، تعريب إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت. الجزائر 1982، ص –ص.69–70. لكنه بعد هذا التاريخ ضعف الأسطول البحري الجزائري. وبالمقابل كان مجموع مدافع الحملة الفرنسية مثلا 1500 مدفع ومتنوعة في عتادها ورجالها. وكانت قوة الجيش العثماني النظامي ضعيفة من حيث العدد والعدة إذ لم تعد 6000 محارب في أقصى تقدير. بينما كانت تعدّ خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر بحوالي 30.000 محارب.

البلد ولا تكلف شيئا للحكومة، لأن كنز الداي والاستيلاء عليه يغطي كل المصاريف. واقترح إرسال جيش إلى تنس ثم محاصرة الجزائر بالاتفاق مع الأسطول. فيرغم الداي على تسليم الذهب وكل المراكب الحربية وبالتالي تتمكن فرنسا من جعل النيابة دولة متحضرة وتجارية.

نشرت نسخ عديدة من هذه الوثيقة، وحللت في كتاب ممتاز لشارل رو[1]. ولم تكن له قيمة المذكرات لأنه اعتمد على ذكرياته السابقة. فهو يريد أن يخلق نزاعا يلعب فيه تيدنا دورا جميلا. ولكن بونابرت كان يدرك صعوبات مثل هذه الحملة. ومهما يكن فقد كانت مثل هذه المعلومات مفاتيح تمكنت بها السلطة الفرنسية من فتح أبواب الجزائر العاصمة عام 1830.

أما في مصر، فقد كانت لتيدنا فكرة أحسن عن إمكانية تطويرها بشرط أن تسيّر من طرف شخص مستنير. وكان تيدنا من المعجبين بمحمد علي والي مصر. وقد كتب له قصيدة شعرية قرأها عليه أثناء حفل، وكان له الشرف بترجمتها إلى التركية. بل وأهدى له كتابا حول الإدارة المدنية والعسكرية في مصر، في حين أن هذا الكتاب لم يكن عبارة عن مقالة مديح بل احتوى على آراء مفيدة، إذ تجرأ على المطالبة بنوع من

---

1 - Roux (Ch), France et Afrique du Nord avant 1830, Félix Alcan Paris 1932, p. 413.

الحرية في الزراعة والتجارة والصناعة لبلاد مصر لأن الإدارة الاقتصادية للبلاد مثل ما يطبقها الباشا ظهرت لتيدنا غير سليمة. كما كتب بالإيطالية مذكرات حول الحملة المصرية ضد الوهابيين[1].

ولم يعمل تيدنا على إثراء نفسه بالمال خلال الأربعين سنة التي قضاها في خدمة وزارة الشؤون الخارجية. فقد ربى بصعوبة أبناءه السبعة[2]. ولما وصل إلى سن العجز، ترك وراءه 24.000 فرنك من الديون

---

1 – وفيما يتعلق بحملة محمد علي على الوهابيين فإنه حين لم تتمكن السلطنة العثمانية من القضاء على الحركات الانفصالية في آسيا حولت أمر القضاء عليها لوالي مصر محمد علي، وتمكن هذا الأخير منها. وشجعه ذلك على التوسع والتفكير في تشكيل إمبراطورية مصرية لكن الدول الأوروبية تدخلت ضده. للمزيد من المعلومات يراجع: لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، الفرابي 1980، ص-ص. 124-144.

*2 – لقد تخصص ولد تيدنا البكر في المصريات. ونقل إلى باريس مجموعة مهمة من تحف التاريخ القديم.

وقد أحيل تيدنا على التقاعد سنة 1825 (دفاتر المهنة محفوظة في سجله في Quai d'Orsay في تاريخ 25 أوت 1830). ويظهر أنه كتب مذكرة مجهولة المؤلف (ممضاة ث البكر) وأرسلت من تولون إلى وزارة الحربية في سنة 1827 من اجل المناداة بحملة برية ضد الجزائر، وفعلا فقد وجد أمران من الأفكار المذكورة في مذكرته تعود لسنة 1802، الأمر الأول يتعلق بنزول سري لمحاصرة بالمدينة. والأمر الثاني يتعلق بالاستيلاء على كنز المدينة الذي يستعمل في دفع مصاريف الحرب. ومن غير المستبعد أن يكون تيدنا هو الذي كتب هذه المذكرة على الرغم من أنه لم يكن معروفا في وزارة الشؤون الخارجية آنذاك، ولهذا لم يتجرأ على إمضاء المذكرة إلا بالأحرف الأولى من اسمه تحفظا من كشفه إذا ما نفذ المشروع. ويعرف –

رغم أن الدولة تكفلت بأداء جزء منها.

لم يكن كاتبا لامعا، ولم تشتهر في أي شيء بارز مهمته الدبلوماسية. ولكنه كان من بين أولئك الشجعان الذين حاولوا فهم العالم الإسلامي. لذلك فإن رواية لمغامراته في بلاد الجزائر تعد وثيقة ثمينة بالنسبة لتاريخ الجزائر خلال الحكم التركي العثماني.

- إن هذه المذكرة كانت الأصل في البحوث الأولى التي قامت بها وزارة الحربية في إمكانية القيام بحملة للاستيلاء على الجزائر. يراجع:

Roux (Ch), France et Afrique du Nord avant 1830, P. 543

ثالثا

تيدنا الأسير (تيدنا يكتب من زوريخ عام 1785)

ذهبنا في هذا السفر المقدر، لا نملك أية حمولة سوى بعض البراميل من خمر مالاقا. وكان الطقس جميلا لمدة خمسة أو ستة أيام. ولم يحدث لنا شيء يلفت النظر. ولكن عندما وصلنا قرب شواطئ كاتالونيا هبت الرياح من الجنوب بقوة شديدة، فهاج البحر. وكان كلما ارتفعت أمواج البحر أتتنا الرياح من الجنوب لتقذف الجميع من على سطح المركب، ففرض علينا السير دائما في اتجاه غير اتجاهنا، ولم نتمكن من مواصلة السير خوفا من أن تلقي بنا قوة الرياح وأمواجه على الشاطئ، حيث نموت هناك حتما، الشيء الذي أوجب علينا الاتجاه نحو الداخل كلما أمكننا السير حتى وصلنا إلى وسط خليج ليون، وهنا بدأنا نلاحظ مركبين يظهر لنا سائرين نحو المنطقة التي جئنا منها، ولم يسمح لنا البحر الهائج بمعرفتها. في حين أكد لنا القائد وهو رجل قليل المعرفة أن المركبين فرنسيان. وبالفعل كان المركبان وكأنهما فرنسيان لأن القراصنة الجزائريين الذين تقفوا أثرنا منذ مدة طويلة من دون أن نلمحهما استعملوا حيلة جعلتهم يتنصرون، إذ ساروا دائما نحو الشمال حتى يخدعونا جيدا. وحينما أصبحوا قرب مركبنا استغلوا شدة الرياح وهجموا علينا. ولقد كشفنا

كل هذه المناورات بعد فوات الأوان، وأصبحنا تقريبا تحت قبضة مدافع هؤلاء القراصنة، لأنه لو تمكن قائد مركبنا من معرفتهم منذ الوهلة الأولى لرؤيتنا أياهم لكان بإمكاننا الهروب من أيديهم. وكان بإمكاننا استغلال قوة الرياح مثلهم وبالمسافة التي تبعدنا عنهم، أو نكون قد ارتمينا على الشاطئ الذي ربما تكون فيه الرمال فيكون حينئذ غرق سفينتنا أقل خطر من العبودية. ولم يكن على مركبنا سوى 13 شخصا، وكان من بين هؤلاء يوجد مسافران مريضان وهما ضابطان فرنسيان قادمان من سانت روش (St. Roch) وبحاران صغيران، وليست لدينا مدافع ولا حجارة. لم يكن باستطاعتنا مقاومة القراصنة المسلحين أشد التسلح بأكثر من 80 شخصا. وأمرونا بإطاعتهم. وعندما رأوا أننا لم نستعد لأي دفاع حاولوا اقتحام سفينتنا رغم هيجان البحر الذي كان لهم عائقا كبيرا. ودخل 30 شخصا إلى سفينتنا واستولوا علينا ونقلونا إلى إحدى سفنهم وكبلونا في قعر المركب وكان هذا يوم 2 أفريل 1779.

كانت الغنيمة التي استولى عليها الجزائريون أقل أهمية مما كان ينتظر جشعهم. وقال لي أحدهم وهو يتكلم جيدا الأسبانية مؤكدا لي أنهم لو علموا بقيمة هذه الغنيمة فإنهم لم يبتعدوا أبدا عن طريقهم ولم يهاجمونا لأنهم كانوا ذاهبين لملاقاة مركب نابوليتاني كبير كان من المنتظر أن يخرج (كما يقول) من برشلونا البارحة أو قبل البارحة. أما نحن، فلم نعامل

معاملة سيئة من طرف القراصنة مثل ما كنا ننتظر، وبما أنهم لم يجدوا فينا مقاومة، وبالتالي لم يجرح أحد منهم فقد كانوا إنسانيين بعض الشيء طيلة الأربعة أيام التي قضيناها للوصول إلى الجزائر العاصمة.

وخلال هذه الأيام الأربعة أخذت بعض الوقت لتأمل حـالي؛ إذ رأيت نفسي مكبلا بالحديد وفي وضع جعلني بعيدا وربما إلى الأبد عـن أوروبا كلها وعن كل ما هو غالي عليّ. وازدحمت في خيالي الآلاف من الأفكار وحينئذ اعترفت أنني جلبت لنفسي سخط السماء، وليسـت إلا جرائمي التي دفعتني نحو هذه الوضعية الأليمة التي أنا فيها. كنت أقـول السماء عادلة وتظهر عدالتها في هذا الوقت لأنها عاقبـت أكـبر نـاكر للجميل وأكبر آثم في الناس، وإذا أسرت ولو قبل أن أصبح مذنبا في حق قريبي لكنت سعيدا ولن يكون هناك ما أعاتب عليه نفسي ويمكنني اتهـام القدر بعدم العدل. لكن، إلى من أنسب آلامي؟ لا أنسبها إلاّ لجرائمـي، إليّ وحدي. وأخيرا إلى عدالة السماء، إنني استحق هذا فعلا.

رابعا

تيدنا في بلاط باي معسكر

في الوقت الذي كنت استسلم فيه لشتى الأفكار دقت ساعة وصولنا أخيرا إلى الجزائر العاصمة، وحالما نزلنا من المركب قدنا إلى السجن حيث يوجد العبيد المساكين[1]. بعدها أخذنا رجال إلى السوق وباعونا مثلمـا تباع الحيوانات. وقبل هذا سبق للـداي أن اسـتولى علـى البحـارين الصغيرين[2]. وأخذ القنصل المسافرين الضابطين[3]. أما أنا فقـد اشـتراني يهودي يتكلم قليلا الفرانكية[4]. وقال لي حينما كان يقودني إلى منزله إنه اشتراني بسبعين سكة[5] وأنها دراهم ضئيلة بالنسبة لي. وواصـل كلامـه

1* – يوجد في الجزائر أكثر من 3.000 عبد أكثرهم كان ملكا للداي وللخواص، ويعامل عبيد الداي الموجودون في السجون المختلفة معاملة سيئة، وكذلك يقوتون بأسوء القوت ويعملون كثيرا.

2* – يستولي عادة، على كل الأولاد في هذا السن الصغير لتربيكهم والاستفادة منهم.

3* – توجد معاهدة بين فرنسا وإيالة الجزائر. وفيها أمر متفق عليه في أن كل فرنسي قبض عليه وهو على مركب عدو لهذه الإيالة يصبح عبدا، إلا إذا كان مسافرا. وقد توسلت لدى القنصل لاستعمال هذا المبرر لتحريري، ولكنه لم يتمكن من ذلك، لأن أوراق إبحارنا تبين جليا أني كنت عضوا في هذا المركب. فتقرر أن أكون عبدا رغما عني.

4* – هي خليط بين الإيطالية والأسبانية. وهي قليلة التداول ولا تكاد تسمع.

5* – تساوي السكة وقتئذ 10 ليرات و2 سول و6 دنوش فرنسي.

قائلا: بشرط أن تكون عاقلا وأن تعمل جيدا كي لا أندم على شرائك.

كنت مهموم القلب بما حدث لي وخاصة بالقدر الذي جعل سيدي يهوديا حتى أنني لم أكد أسمع ما كان يقوله لي. وحينما وصلنا إلى منزله سألني عما أجيد عمله

- قلت له: لا شيء
- كيف أليس لك عمل؟
- قلت: له لا
_ قال: ألا تعرف أيضا العمل في البستان؟
- أجبته: لا، لا أعرف شيئا آخر غير الكتابة، وهو العمل الذي شغلته دائما.
- قال: وماذا تنفع الكتابة؟

كان اليهودي يفضل أن أكون بستانيا أو شيئا آخر. وفي آخر الأمر قال لي إنك لا تساوي شيئا بالنسبة إلي. يجب أن أبيعك وأخشى أن يعرف المشتري بأنك لا تملك عملا، وبالتالي لا يمكن استرجاع دراهمي.

في هذا الوقت ومنذ مدة قصيرة كان باي معسكر قد كتب إلى وكيله[1] في الجزائر وكلفه بأن يشترى له شخصا في سن النضج يكون على معرفة بالقراءة والكتابة، كان لهذا الباي ثقة كبيرة في الفرنسيين، وكان له

*1 – وهو سفير أو قنصل.

شخص فرنسي عندما كان خليفة، وكان معجبا به كثيرا، وبقي في خدمته إلى أن توفي وتأسف كثيرا على فقدانه. وعندما علم الوكيل أن هناك فرنسيا على متن السفينة الأسيرة أصر في البحث إلى أن عرف أنه من الثلاثة المقبوض عليهم هناك، أي إني عند يهودي؛ فجاء إليه اعتمادا على هذا الخبر وسأله أين يوجد العبد الفرنسي الذي اشتراه. ورد عليه اليهودي وهو يقدمني له ها هو ذا، وسأبيعه لك إذا احتجته بكل فرح. فرد عليه الوكيل بنعم. وفي نفس الوقت انفرد بي هذا الأخير من أجل أن يطرح علي نفس الأسئلة التي طرحها علي اليهودي الذي لم يعرف لماذا يريد الوكيل شرائي، ولم ينشرح صدره أبدا بأن أكلمه على انفراد خشية من أن يعرف أنني لا أحسن أي عمل فلن يشتريني إلا إذا كان الثمن أقل مما اشتراني به. ولكن لم تكدر إجاباتي الوكيل مثل ما أغاظت اليهودي الذي عزم على بيعي عندما عرف ذلك؛ بل أنه ابتهج بما انطبقت علي ما يرغب فيه، الشيء الذي أرغمه على أن يقول لي بهدوء وبالأسبانية إنك الشخص الذي أحتاج إليه، سوف أشتريك بأي ثمن. يمكنك القول إنك سوف تكون سعيدا. وتقدم في نفس الوقت من اليهودي وقال له إنه إذا لم يطلب ثمنا ضخما فسوف يشتريني؛ واتفقا على مائة سكة وأصبحت ملكا للسفير الموكل.

أصبحت ملكا لسيد جديد فقادني خدامه إلى منزله، ولم يتأخر هو في اللحاق بي. وأمر خدامه بشراء ملابس أخرى وتوجه لي بهذا الكلام: لست أنا الذي اشتريتك لأموري الخاصة، بل اشتريتك لتكون ملكا لباي معسكر سيدي، فإذا كنت حسن السيرة إلى جانبه يمكنك القول إنك سوف تكون أسعد عبد. وهو نفسه الذي كلفني بأن أشتري له أحد الفرنسيين لأن له ثقة كبيرة فيهم حتى أنه يفضلهم على غيرهم من الدول. وأمرني أن أجد له شخصا مثلك، وأعتقد أنني أكون خدمته حين أرسلك إليه. وفي يوم أو ثلاثة سوف تسافر وأحرص على ألا تخيب ظني...

وأخيرا وصل اليوم الذي أسافر فيه إلى معسكر. وقبل ذلك كتبت إلى م.د... في قاديس وشرحت له كل ما حدث منذ أن خرجت من عنده ورد علي بسرعة جوابا شديد التعزية. وأكد لي بعد براهين جديدة للصداقة والإحساس بمأساتي أنه سوف يعمل كل ما في وسعه لتخفيف أسري وحتى لتحريري، الشيء الذي كان يعمله لو لم يدركه الموت، وخسرت هذا المحسن الشريف بعد أن أصبحت عبدا في مدة قصيرة. ولم أكتب إلى زوجته. ويظهر أن الندم على أخطائي قد أضفا كل عواطفي. وكتبت أيضا إلى والدي العزيز في ف...(فرنسا)، وكذلك إلى صديقي في ليفورن وأعلمت كلا منهما بنكباتي ووضعي.

في النهاية فقد ذهبت من الجزائر ومن عند الوكيل الذي لم يعاملني كعبد، وغمرني بالفضائل، وهو رجل جميل ومحسن، يزيده بياض لحيته وشيخوخته إجلالا وعظمة. وبمقتضى المعارف التي كانت لدي عن محاسنه وسلوكه يمكن القول إنه كان من أكبر الإنسانيين المخلصين الذين وجدوا في هذا القرن. فقد ابتعدت عنه مصحوبا بدليلين. وعندما وصلنا إلى قمة الجبل الذي أقيمت في سفحه مدينة الجزائر، تمكنت من ملاحظة وضع هذه المدينة التي تعطي منظرا رائعا جدا، وبين جمال ضواحيها سورة تشرح الصدر بمنظرها المميز وبساتينها ومنازلها الريفية المبنية على منحدر الجبل، والمميز فيها كثيرا هي منازل القناصل الذين يبنون بذوق حديث.

على كل حال ليس هناك أجمل من هذه المدينة ولا أفتن من الأرياف والتلال الخصبة التابعة لها التي تملأ النظر بهجة. ولكن الخسارة في أن يكون داخلها لا ينطبق على هذه الشمائل كلها. فليس هناك شوارع طويلة، فهي كلها ضيقة ومتسخة ومنخفضة وبسيطة البناء، وحتى قصر الداي لا يملك شيئا يجذب النظر، لأننا كلما طفنا فيه وجدناه ناقص الجمال.

وانتقلنا إلى الجهة الأخرى من هذا الجبل ودخلنا سهل متيجة، وهنا [illegible] إعجابي بهذا المنظر، وهذا السهل الشاسع، إذ يمتد من الشرق إلى

الغرب، وهو شديد الخصوبة والفلاحة في بلاد البربر. وقد جذبنا منظر لبستان فيه تفرقت بعض المنازل الجميلة. ومن هذا السهل يقطف أجود أنواع البرتقال والليمون الشديد اللذة. وفي سفح الجبل من الناحية الجنوبية توجد مدينة البليدة الجديدة البناء، التي تعطي منظرا أكثر بهاء. أما المدينة القائمة على الجهة المقابلة فوق جبل آخر لا تعرض هي الأخرى شيئا أقل جمالا.

وخلال الثماني أو تسع ساعات التي قضيناها في اجتياز هذا السهل، لم أتعرف في كل خطوة خلالها إلا على أشياء أكثر أهمية، أعطتني فكرة حسنة عن هذه البلاد، وتتابعت هذه المزايا في الجبال التي قطعناها في يومين. ووصلنا بعدها إلى سهل مليانة، التي لا تعطي شيئا أهم مما رأيناه في السابق. فلا نرى البشاشة ولا المنازل ولا حتى الأشجار، ولا نشاهد فيها سوى سهلا واسعا يقيم بين بلد جميل جدا.

وتنتج مليانة هذه رزا كثيرا، ونرى فيها نوعا من الدواوير[1]. والشيء الذي حيرني كغيره مما رأيت في هذا السفر هو عند قدومنا إلى

*1 – ومع أرياف هذا البلد ومنازلها عبارة عن خيام سوداء التي تقاوم كل الأحوال السيئة. وتشكل دائرة كبيرة تربط فيها أثناء الليل الحيوانات الداجنة لكل واحد من السكان. وتظهر من بينها خيمة رئيس الدوار بواسطة علوها عن غيرها من الخيام. وتغير من وقت لآخر هذه الأرياف عن طريق الجمال والأبقار وتوضع في أي مكان، ولا تبنى المنازل في بلاد البربر إلا في القليل النادر، وتحمل منزلين أو ثلاثة ملتصقة إلى بعضها البعض.

هذه الدواوير؛ وكلما توقفنا في كل واحد منها يقوم دليلي بنحر غنم وكثير من الدجاج، ويعاملون من يتجرأ على مخالفتهم كما يعامل العبيد السود، لم أكن أفهم لغتهم، وبذلك لا يمكنني التدخل لمعارضة هذا البغي رغم أنهم يستخدمون اسمي لارتكابها.

كما لم أكن أعرف عادة هذا البلد البربري الذي يسهل طريق المسافرين بمواصلة سفرهم دون أي اتفاق مما يؤدي إلى المبالغة في الوحشية خاصة إذا كانوا من الناس الذين اشتراهم الحاكم، لذلك فلا يغفل دليلي على الإعلان كلما وصلنا أنني مسيحي وإنني ملك لباي معسكر يحصلون على ما يريدون، وبهذا الاسم كل شيء يسهل لهم[1].

وأخيرا وصلت إلى معسكر بعد ستة أيام قضيناها في المشي، وأصبحت قريبا من سيدي الذي سيجعل مني (أسعد عبد، كما قال الوكيل). وبما أننا وصلنا متأخرين فلم أقدم إلى الباي قبل يوم الغد، وفي

1 – حدث هذا بنفس الطريقة تقريبا لحمدان خوجة وابنه علي أفندي أثناء قيامه برحلة من الجزائر إلى قسنطينة عام 1832 قصد إقرار السلم بين باي الشرق والسلطة الفرنسية. إذ أن سكان مقاطعة قسنطينة كانوا يعاملون كلا منهما معاملة طيبة مراعاة للحاج أحمد وخوفا منه. لمزيد من المعلومات تراجع ترجمتنا من الفرنسية إلى العربية بعنوان: وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عام 1832، المكتبة الجامعية، غريان-ليبيا 2003. حدث هذا أيضا ما يشبه لما وقع للمؤلف حين نقل من أحواز الجزائر العاصمة إلى قسنطينة حيث ذكرت تفاصيل ذلك في ما رأته. ينظر: فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، المرجع السابق.

انتظار ذلك وضعت في السجن مع بعض العبيد الذين يعاملون معاملة أحسن من عبيد الجزائر. وفي الغد قدمت إلى السلطان. واندهشت كل حواسي عند رؤية منظره وأبهة مجلسه (وهي القاعة التي يستقبل فيها رجال البلاط)، حتى أنني لا أكاد أعلم إن كنت موجودا أم لا. وهو رجل في الأربعين أو الخامسة والأربعين، ذو وجه جميل، ولحية سوداء تظهره شديد البياض، وهي تنزل إلى منتصف صدره. وله شوارب من الشعر تنزل على كتفيه على الطريقة التركية، وكان (مثل ما لحظت فيما بعد) شديد الإنسانية وذا سلوك طيب. بالإضافة إلى ذلك ثقافته الواسعة على خلاف الأتراك الآخرين. ويحب كثيرا الأجانب، وفي بعض الأحيان تمتلكه موجة من الغضب بسبب حيويته وانفعاله التي لا يمكنه السيطرة عليها؛ إلى حد يجعله في بعض الأحيان متهما بالظلم. ويجلس فوق سرير العدل الذي لم يكن سوى من القماش المطرز وكذلك ملابسه. وكل شيء يلمع منه إلى حد يشد الإعجاب. وكانت حيطان القاعة مغطاة بزرابي رائعة الجمال، وفوقها لا نرى سوى الذهب وبنادق، ومسدسات وسيوف بأنواع مختلفة حيث زينت بالذهب والفضة. ولم يكن بلاطه المحيط به أقل لمعانا.

وباختصار كل شيء سلبني أكثر مما يمكن أن تراه عيني إلى حد أنني لم أكد أجيب عن أسئلة الباي الذي أبهجته رؤيتي، وسألني باللغة الفرانكية من أي بلد جئت وما هي مهنتي (رغم أنه يعرف ذلك جيدا) وبعد

إجابتي، ظهر أنه ازداد سرورا. واستمر سائلا إذا كنت أجيد لغة أخرى غير لغتي واللغة الأسبانية، ولم أكد أرد عليه أنني أتكلم الإيطالية حتى رأيت الرجل لا يكاد يخفي فرحته وقال لي باللغة الإيطالية والآن بما أنك تجيد هذه اللغة فلن نتكلم بعد اليوم إلاّ بها، وهي التي أفضلها (وواصل قائلا) لقد بقيت مدة طويلة في إيطاليا وخاصة ليفورن. وذهبت إلى مرسيليا وإلى موانئ متعددة أخرى في فرنسا، ولكني لم أتمكن أبدا من معرفة شيء عن هذه اللغة. وأصبحت حيرتي أكبر مما كانت عليه عندما رأيت الطريقة التي استقبلني بها الباي. وأيضا إجادته الحسنة للغة مختلفة كلية عن لغته، وأخيرا بعد أن طرح علي العديد من الأسئلة الأخرى، أمر أحد الشاويش[1] بأن يقودني إلى حيث يوجد غلمانه المسيحيين وأن يعطي مكانا يليق بي.

منذ ساعة وصولي إلى هذه الغرفة، أحاط بي المسيحيون (وكانوا كلهم كاتالونيين أو مايوركيين- وأكبرهم لا يتجاوز الخمسة عشرة عاما) وأظهروا لي حرقة الفراق والغربة أدهشتني. ولم يتأخروا قطعا في القول بما يعلمهم يثبتون لي كل هذه الفرحة لقدومي. وقالوا لي: انتظرك الباي منذ

[1] - وهم الذين ينفذون حكم العدالة مثل ما يعمل الجلادون في فرنسا. وهم مع جنود في هذا البلد أصحاب مراتب عالية ويحترمهم أفراد الشعب مثل الباي نفسه.

مدة طويلة وأنه ابتهج بوجود أحد الفرنسيين لكي يجعل منه خزندارا له[1]، ويطرد الشخص الموجود حاليا: لأنه سارق يسرقه، ويعامل خدامه مثل السود.

كان كل ما قاله لي هؤلاء الشباب يعد لغزا بالنسبة إلي و لم يعمل إلا على زيادة دهشتي أكثر فأكثر. وقلت لنفسي: ما كل هذا؟ أين هي تلك البربرية واللاإنسانية التي تنسبها معظم أوروبا لهذا الشعب الذي أنتمي إليه حاليا؟ ألا يمكن أن يكونوا إنسانيين تجاهي فقط؟ فقلت لنفسي: لا. وواصلت القول: يجب على من ينسبوا إليهم ما لا يشرفهم أن يعرفوهم أولا. لأنهم لم يعيشوا أبدا معهم.

وواصلت القول: أملنا أن يُعامَل العبيدُ من الترك والمغرب الموجودون بين أيدي الأسبان والنبوليتانيين والجنوبيين والمالطيين مثل ما يعامل المسيحيون وهم بين أشخاص وصفوا بالوحشية، وذلك من أجل كل الإنسانية.

وبعد فترة من الوقت، لما أصبحت برفقة أقراني الجدد، قدموا لي بأمر من الباي ملابس كاملة[2]. وتأكدت أن ما قاله لي الغلمان والوكيل

*1 – وهو وكيل المال وفي نفس الوقت مدير القصر.

*2 – وهي عبارة عن أربع أنواع من الأثاث المصنوعة من الصوف والمطرزة بالذهب ومعها زوج من سروال على الطراز التركي من النسيج الهولندي وحزام جميل جدا من الحرير.

من قبلهم في الجزائر، بدأ يتحقق. وأجبرت على لبس هذه الثياب في اللحظة، قائلين لي إن ثيابك التي تلبسها لا تليق بالخزندار.

خامسا

تيدنا الوزير

ها أنا ذا أخيرا، أرتدي ثياب الخزندار، وأصبحت كذلك فعلا من دون أن أعرف ما يعنيه هذا الاسم. وفي المساء بعد أن أمر سيدي بخروج رجال بلاطه، وبقي وحده مع غلمانه المحيطين به[1]. بعث إلي للحضور إليه، وأمرني بالاقتراب منه وقال لي هذه العبارات بحنان فريد من نوعه لقد اشتريتك لكي تكون عبدا لي وفي خدمتي، ولكن إذا كانت سيرتك حسنة، فلا ينظر إليك كذلك. وسوف أعينك لتكون قريبا مديرا لكل منزلي. فاحرص على ألا تخيب ظني، وإن النفوذ الذي سوف أمنحك إياه لا يجعلك تجتاز حدود الأمانة التي هي من واجباتك نحوي وسوف أعطيك رجلا يساعدك في المجهود الذي ستبذله لمعرفة اللغة العربية[2]، كما آمل وهو من مصالحي ومصالحك أن تجيدها. ولا أريد أن تقوم بأي عمل حتى تكون لك معرفة جيدة بمنزلي (استمر قائلا). ولاحظ جيدا عمل

*1 – يقوم الغلمان المسيحيون بالتناوب بخدمة الباي.

*2 – لقد أرسلوا لي فعلا أحد المارقين، الذي لم يساعدني في شيء رغم أن أجرته كانت كبيرة.

الشخص الذي سوف تحل محله. فكن خادما طيبا بمقدار ما أنا سيد طيب.

لقد تعجبت من حديث الباي أكثر من أي شيء حدث لي لحد الآن. لم أتمكن من الإدراك كيف أنه منحني كل هذه الفضائل منذ الوهلة الأولى. وفيما بعد عرفت جيدا أنه من مصلحته إيجاد شخص قادر على إدارة أعماله والثقة فيه.

وأخيرا بدأت أفهم قليلا اللغة العربية وألاحظ أنه بإمكاني تجاوز الصعوبات التي خشيت في أول الأمر منها واعتقدت أنه لن يمكنني أبدا تعلمها. وفي نفس الوقت، كنت أتأمل ما سوف أعمله في المستقبل.

وقد استفدت كثيرا من الشباب المحيطين بي، حيث يوجد من بينهم من عاش إلى جانب الباي مدة طويلة والذين كانوا مطلعين على واجبات الخزندار.

وبما أنهم كانوا متشوقين لاعتلائي منصبي، حتى لا يكونوا معرضين أبدا للمعاملة السيئة التي كان يعاملهم بها الخزندار السابق الذي سوف أعوضه، لذلك كانوا يقومون بكل فرح، بمساعدتي وتعجيلي لأكون رئيسا عليهم. ولا يجب علي أن أنتظر أي توضيح من المارق الذي يتولى مهام الخزندار. فهو عالم بما سوف يحصل له، ومعنى هذا أنه يكن لي الكراهية التي أظهرها في كل وقت نحوي، وكان بإمكاني تقديم شكوى

ضده إلى الباي لكن، بما أنني كنت أعرف أن كل شيء سوف يتغير، فكنت أصبر. ولكن هذا الأخير لا يجهل شيئا، ولم يتحمل صمتي سوى على منحه فكرة حسنة والثقة أكبر بي.

ووصل أخيرا، وقت المحلة[1]. وأراد سيدي أن يعلمني بها بنفسه، رغم أني قد علمت بها عن طريق الغلمان. (وقال لي)[2] هناك يمكنك الاطلاع أحسن على أعمالي أكثر من أي مكان آخر. وأرجو أن أهتم بها حتى يمكنني تسليمها كلية قبل دخولنا إلى المدينة. يظهر أن كل شيء يسير في صالحي، وتطلعني بسعادة أكيدة، لو أن فكرة العبودية لم تجعلني أتأمل أنه لا شيء يبقى مستقرا، إذا كنا لا يمكننا التصرف في أنفسنا.

ولما رأيت كيفية إعداد المحلة وكل ما يكلف به الخزندار بدأت أرتعب. وظهر لي أنه ليس بإمكاني أبدا أداء مهمتي على أكمل وجه، هذه المهمة التي تؤثر على أشياء كثيرة لأن منها تصدر أنواع متعددة من الأعمال. ورأيتهم يعدون ما تحمله 150 دابة على الأقل، بما يحتاجه الباي

* 1 – يخرج الباي كل سنة مصحوبا بجيش ليطوف في البلد الذي يحكمه، ويجمع الأموال المفروضة على السكان. وتدوم المحلة ثلاثة شهور خلاف ما قاله تيدنا (أربعة أشهر)، ويبدأ خروجها دائما في أوائل جوان. وغالبا ما تأتي الباب محلة أخرى من العاصمة كل سنة لتساعده على جمع الضرائب، وكانت المحلة تنتقل في خيم لكل واحدة فيها حوالي 25 جنديا، بمجموع 60 خيمة.

2– يلاحظ أن أسرار الباي معروفة في القصر لدى أغلب من يعيش فيه.

فقط طيلة الأربعة أشهر التي تستغرقها المحلة، (لأنه من أجل المؤونة اللازمة خصصت 300 أو400 من الجمال لحملها) التي من واجب الخزندار أن يكون مسؤولا عليها. وهذا الأخير (حسب المعلومات التي تلقيتها عن إجاباته) يكون هو على رأس القافلة في الطريق، وعليه أن يعمل على حمل وإنزال حمولة هذه الدواب، ويوجد تحت تصرفه ستون خادما، يديرهم بنفسهم الخاص، بشكل يجعل الخزندار لا يقوم بشيء أثناء الطريق، وعمله الأساسي يكون عشية وصباح الرحيل، حيث عليه أن يعد ويرتب كل ما يجب فعله بنفسه لكي يتجنب فقدان أي شيء (الشيء الذي حصل لي في كثير من الأوقات في بداية مهمتي) وتوجد أشياء كثيرة في الخيام الأربعة التي تحتوي على ما يحتاجه الباي ومنزله. حتى أنه عند تحضيرها له لا يمكن لرجل واحد أن تكون له عين على كل شيء. لنتخيل ما يكون حاكم أو أمير عظيم إذا أراد أحدهما الارتحال لمدة أربعة أشهر من دون تلقي أية مساعدة من أحد. ونظيف إلى ذلك ما يحتاجه الباي عند تقلبات الجو، فمهمة الخزندار ليست سهلة. فضلا على أنه يجب عليه أن يكون آخر من ينام في المحلة والأول من يستيقظ. وعليه أن يعرف الساعة التي يستيقظ

فيها الباي[1]، بواسطة غلام، دون أن يخشى غضبه. وعندما تلاحظ الخيام الأخرى النور ساطعا من خيمة الباي تأخذ في الحركة.

ويجب على الخزندار أن يعلم بالذهب والفضة المـــزور الســـائر في البلد[2]، لابد من واجبه أن يدور ويزن ويحسب كل الذي يقدم إلى الباي سواء في المحلة أو في المدينة، وذلك ليس بقليل الاعتبار مثل مـــا يعتقـــد، وعند وضعه الدراهم في المخازن، عليه أن يفرق بين دراهم كل مقاطعـــة حتى يتفادى السلبيات التي يمكن أن تحدث سواء عن خطأ يرتكبه الكتاب المسؤولون على الحسابات أو عن تحبث من المكلفين بجمع الضـــرائب[3]. وعليه أن يحافظ على الحاجيات التي يوزعها الباي على الأهالي حـــتى لا يضع نفسه موضع عتاب هذا الأخير.

وزيادة عن كل شيء كان من الواجب عليه أن يعرف كل الخدام القائمين بحمل العدة حتى يكون متيقنا من أمانتهم، ويمكنه تغـــييرهم إذا أراد، أو تعويض رئيسهم عن طريق سيّده إذا قصر في واجبه. وعليـــه أن

---

*1 – يستيقظ الباي عادة وفي كل الفصول ساعة ونصف قبل طلوع النهار حتى يلبس ثيابه ويتوضأ من أجل الصلاة التي يقوم بها نصف ساعة قبل الفجر، وعند قدومه تدخل خيمته الكبيرة حيث يأتي رجال البلاط لتقبيل يده.

*2 – لقد حصل أن وجدت في كثير من الأحيان نقودا مزورة فأرجعتها إلى من يعطيه لي.

*3 – لا تمس دراهم المحلة حتى وصولنا إلى المدينة. ويحمل الباي معه دائما ما يكفي لكل ما يحتاج إليه سواء لنفقات الفرقة التي تتشكل كل سنة أو للخدام...الخ.

يعرف أكثر الذين يتقربون من الباي حتى يكـــون الـــذهب والفضـــة والأدوات ذات القيمة الثمينة في أمان. وأخيرا عليه أن يحرس ويمنع نزول أي شيء إلى السوق إلا بإذن منه.

ولننتقل الآن إلى النفوذ الذي يتمتع به هذا الخزندار أمـــام البـــاي، يمكنه أن يعمل الشر والخير للعديد من الناس، لأن بواسطته تمنح المهن. وإذا كان هناك رجل ثري يمكنه منح مبلغ من المال يجعله حاكما لمقاطعة أو أي مهمة أخرى، فالمسألة بسيطة جدا إذ عليه فقـــط أن يتقـــدم إلى الخزندار ويكلفه بأن يقول لسيده إنه سوف يعطيه 300 و400 ســـكة إذا أعطاه بالمقابل منصبا. ثم يأتي شخص آخر ويدفع نفس المبلغ، وفي بعض الأحيان يأتيه ثلاثة أو أربعة متنافسين على نفس المنصب. فمـــاذا يعمـــل الباي؟ يأخذ المبلغ من كل واحد منهم ويختار من يعجبـــه، وفي بعـــض الأحيان لا يكون المختار أحد من أصحاب الأموال التي دفعت. وكـــان يؤلمني أن أراه هكذا يستغل استبداده. وكان علي أن أنقاد إلى ما لا يعنيني فيه، وكل ما أعمله هو أن أخبر من يتقدم إليّ إذا كان هناك متنافسان تقدما لنفس المنصب. وأن الذي يفوز ويختار يتلقى ثوبا كاملا من يد الخزندار ويعطيه الحاكم الجديد 10 سكات. وهـــذا ينطبـــق على كـــل الوظائف.

ولنأتي الآن إلى أجرة الخزندار فهو يتقاضى 10 سكات كل شهر من الباي، بشكل يجعله يقبض بالإضافة إلى ما يمنحه إياه الحكام سواء عندما ينتهي حكمهم أو عندما يعين أحد جديد منهم ثم إلى ما يربحه من تعيين أشخاص جدد في البلاط من ثلاثة إلى أربعة آلاف ليرة في السنة. ويمكنه بسهولة أن يزيد في ربحه.

فالخزندار يمكنه إثراء نفسه بسهولة كبيرة من دون أن يلاحظ سيده ذلك. ويمكنني الافتخار بأنني عندما كنت أقوم بعملي وأنفذه بإتقان شديد ودقة تامة في أداء واجباتي كنت حصلت على ثقة سيدي بل وكذلك على ثقة كل رجال البلاط، وعملت لنفسي سمعة كانت ثمينة لدي وغمرتني بالرضا في أي بلد آخر.

وذهبنا، إذن، من معسكر إلى هابرة حيث من المفروض أن تنظم لنا فرق قادمة من الجزائر مرسلة من طرف الخليفة[1]. لقد اندهشت عندما قدموا في الصباح حصانا مجهزا بلجام مزين بالفضة وكذلك الرُكُب وسرج أعلاه مصنوع من القطيفة البنفسجية ومطرز بالذهب[2]. مع الأمر بألاّ اتبع الباي، بل أن أذهب مع الفرقة (غيرة جديدة من المارق). وبهذا

*1 – كانت المنطقة الخاضعة لحكم باي معسكر تتكون من أربعة محلات متنوعة، محلة له وأخرى للخليفة وثالثة لقائد فليتة والرابعة لقائد مليانا. والمبالغ التي يجمعونها كلها تعود للباي.

*2 – بواسطة هذا التزيين يتم تمييز خيول الباي.

الشكل، كانت لي الفرصة لرؤية كيف يتم ارتحال سيدي من فوق الحصان الذي أمتطيه. وحالما طلب حصانه، أسرع كل واحد لركوب حصانه والانضمام لبعضهم البعض[1]. وعندما ركب فرسه وأخذ في المشي، سار وراءه الذين يحملون السنجاق[2]. ومن الوراء يعزف الرجال الموسيقى التي تتشكل عادة من ثمانية مزامير، والعديد من الطبول الكبيرة ودُفَيْن كلها تشكل صوتا صافيا لا تتوقف عن العزف طول الطريق.

وتسير بعدهم فرقة الفرسان التي تنتشر يمينا وشمالا في السهول على ألا تتجاوز السلطان، ولا يسير إلى جانبه سوى كبار رجال البلاط، وأمامه المسلمون المتشكلون من 60 شخصا من شباب البلاد. أما الغلمان المسيحيون الراكبون كلهم على أحصنة جميلة يقومون بقيادة أحصنة الباي، وعددها اثنا عشر حصانا مسرجة كلها، فإنها تسير الواحدة تلو الأخرى. وأخيرا يأتي المكلفون بالمؤونة والخيمة الصغيرة التي توضع في الطريق وتتبع السيد على بعد 20 خطوة تقريبا. وليس هناك من الغلمان إلا واحد مكلف بإعطاء الباي غليونه في الطريق ويسير وراءه، أي، قبل

1 – وهذا التفسير خاص بالانطلاق من المحلة ومن المدينة. وعلى كل واحد الانضمام إليه ... ما عدا المقربين له الذين لا يبتعدون عنه أبدا.

2 – الرايات، هناك عادة سبعة رايات.

السنجاق وهي مكانة شاقة خاصة عند السير في الليل وتأتي بعده مكانة الخزندار.

وكانت كل فرقة تسير على متن الخيول ماعدا الفرقة الخاصة المكوّنة من الأتراك والكراغلة[1]. وهؤلاء يسيرون مترجلين ولهم حريـة التنقـل والذهاب حيثما أردوا.

يذهب الخليفة قبل انطلاق الباي بساعة، لأنه مكلف بتنزيل المحلة، ويتبعه كل المكلفين بقيادة الجمال والدواب الحاملة لخيام جميع العسـكر، وهكذا فعندما يقدم السلطان يجد كل الخيام منصوبة. وللمحلـة منظـر جميل، إذ توضع الخيام الأربعة الخاصة بالباي في الوسط، وتحتوي علـى الخيمة الملكية/الوجق، ثم خيمة المراقب الليلي ثم خيمة المخـزن وأخـيرا خيمة مراقب الغلمان. وتشكل هذه الخيام الأربعة مربعا، ويكون مدخل

1 - الكراغلة هم من أب تركي وأم جزائرية، فبرغم أنهم من علية القوم لكنهم لم يتغلغلوا في الحياة الإدارية والعسكرية العليا والمالية الكبرى. وقد يكون من أكبر الأسباب التي منعتهم هو رغبة آبائهم التفرد بالسلطة في البلاد من دون الأهالي وأبنائهم. وكان لهذا الموقف ما يبرره، إذ سبق لهؤلاء الكراغلة أن حاولوا الإطاحة بالنظام العثماني عام 1630 وطرد الأتراك الإنكشاريين من البلاد، لكن أمرهم كشف وقضي عليهم بمساعدة بعض الميزابيين الذين ألبسوا ملابس نسائية وتقدموا إلى تجمع الكراغلة يخفون أسلحة متظاهرين بالنجدة من ملاحقة الأتراك وبمجرد دخولهم قضوا على المتمردين.

جق دائما متجها نحو المشرق. وتوضع خيمة المشتغلين بالحفاظ علـى الخيول على اليمين على بعد 200 خطوة، بشكل يجعل الباي وهو علـى العدل يراهم من هناك. أما على اليسار وعلى نفس المسافة توضـع مة التي تحتوي على الأشخاص المكلفين بالاعتناء بالـدواب الحاملـة عتنة. وتقام خيام كبار رجال البلاط على اليسار واليمين من الـوراء، بعد عنها أكثر الخيام الخاصة بفرقة الأحصنة.

وعلى بعد 400 خطوة من الخيمة الملكية، توضع خيمة كبيرة جـدا الكومنية (Komenia) التي تحفظ داخلها المؤونة لكل المحلة، وتتجدد كل شهر عندما يعاد التوزيع، وعلى يمينها خيمة المطـبخ. وتنصـب المكلفين بحمل كل خيام الباي بين الكومنية وخيمة العـدة الـتي بها الخزندار. أما الخيام التي تنصب للساهرين على حماية الجمـال للمحلة، تأتي بعد الكومنية وتشكل هذه الأخيرة دوارا صـغيرا. كل هذه الخيام بالخيام الثلاثين المنصوبة والمعدة للأتراك، الـذين ن 500 شخص، وتبعد كل منها عن الأخرى بمسافات متسـاوية. خيمة رئيس هذه الفرقة على بعد الخيمة الملكية/البـاي بـ400

خطوة. وعلى يمينه وعلى مسافة قصيرة يوجد مراقب شاويش الـداي[1] المرافق للمحلة.

هكذا هو مترل المحلة الذي يعطي صورة رائعة خاصة في الليل عندما تشتعل كل الفوانيس داخل كل خيمة. قد يعمل هذا الشرح والتفصيل على إرهاق القارئ إذا أجهد نفسه في قراءته. ولكن يجب علي أن أكتب ما رأيت من أجل تنمية هذه المذكرات، ولا أريد أن أعلمها عن طريق مغامرات كاذبة ومن دون تجميل النص بأشياء تفقد حقيقته.

وأخيرا التحقت بنا فرقة الجزائر، وانطلقنا من هبره من أجل الطواف بالبلاد والمقاطعات التابعة لهذه المحلة، وقبض النقود التي يتسارع رؤساء القبائل بتقديمها. كنا نمشي كل يوم تقريبا، مما منحني الفرصة لمعرفة هذا البلد الذي فيه الجمال الساحر والمذعور في نفس الوقت. واجتزنا الجبال والسهول الخلابة التي من الممكن أن تكون خصبة جدا ولكن غير مسكونة تقريبا. والتقينا بقليل من الدواوير، ولكننا كنا نرى في ضواحيها بقاعا شاسعة ممتلئة بالحبوب وكثيرة الجمال. وكانت هذه الأرياف الفقيرة بائسة عند اقتراب المحلة. وكان سكانها خائفين عند رؤية كل هؤلاء الأشخاص المكونين لها. أنه لشيء مهول بالنسبة للذين يعرفون ما يرتكب

1 – كان الباش آغا يعينه الداي ويكون من الأتراك بمساعدة عشر أفراد، من مهامه مراقبة الباي وخلعه وتعيين غيره.

...بها. قضينا تقريبا ثلاثة أشهر خارج معسكر حتى الآن، عندما بعث الباي إلى الخزندار المارق[1] وأمره بالقدوم ومنحني مفاتيح كل ما يخضع لنفوذه، وأن يعطيني لمحة محددة عما إذا كان كل شيء منظم. وأن يحمل ماله وأن يقود حصانه إلى خيمة الشباب المسلمين. حيث عليه أن يبقى ... لم يخبرني سيدي بعد، بشيء إنه قال لي فقط أن احترس في الحين ...بما إذا كان كل شيء على ما يرام (الشيء الذي لا يمكنني معرفته إلا ... منه)، وجاءني المارق، إذن وفتح لي كل المخازن. وعددنا كل أكياس الذهب على 1000 سكه والفضة 100 وأعطاني بعدها كل السجلات المختلفة التي كان يكتبها باللغة الأسبانية (إنها لغته). وقابلت كيس الفضة ...ا هو مدون فكان صحيحا، وبما أنه كان الباب الأهم للملاحظة. لم ...ف على الأخرى ما عدا الباب الخاص بالأسلحة والأشياء ذات قيمة[2].

ها أنا ذا أخيرا أحمل حزاما يحتوي على ثلاثين مفتاحا لا أغادرها ...ا وأتولى منصبا إداريا لم أعرفه بعد. وفي المساء عندما اختلى سيدي ... شرح لي كل ما علي عمله (على الأقل هذا ما يعتقده)، لأنه لا

1 – لقد رأيته في العديد من المرات يطلب مني خدمات صغيرة و لم أرفضها له رغم معاملته ...

2 – ...منها أسلحة جميلة جدا مصنوعة بالماس والذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان. ويملك الباي ...منها ثمينة جدا حتى أني لا أتجرأ على تحديدها.

يعرف هو كذلك كل ما يتعلق بمهمة الخزندار). وقد أمرني أن أحرس الخدام، وأنهم (كما يقول) أناس لا يبحثون إلا على سرقته، وأن أحافظ على سلوك الغلمان ومعاقبتهم إن استحقوا ذلك. وأخيرا قال إني سأكون أهلا لجمائله التي غمرني وسيغمرني بها في المستقبل بشرط أن أهتم بأعماله. لحسن الحظ لم أكن أبدا متخاذلا (وهي الميزة الوحيدة التي أملكها). لذلك عندما عرفت أن تحقيق أملي وفك أسري الذي رماني إليه القدر متعلق فقط بعملي واتقاني له.

استسلمت كلية إليه ونجحت في أدائه لحد أني كنت أثناء بقية أيام المحلة، قد انتهيت من تنظيم كل واجباتي المتعلقة بمنصبي، ولاحظت أن سيدي كان مبسوطا جدا.

ودخلنا المعسكر حيث اكتسبت أكثر فأكثر محبة الباي، الذي أقر لي بكل حباياه في مدة قصيرة، وفي نفس الوقت كنت أبذل مجهودا كبيرا في تعلم اللغة؛ مما سهل علي إجراء حوار مع كبار رجال البلاط، وجلبت محبتهم. وقد أحسنت بكل ما استطعت إلى العبيد المسيحيين المعنيين لخدمة سيدي، والذين لم يتأخروا في اعتباري حاميا لهم. أما أولئك المخصصون للمجلس، أي الغلمان، فإنهم كانوا يهنئون أنفسهم على كوني رئيسهم في كل وقت. ولكن عرفت كيف أجعلهم يحبونني ويلتزمون بواجباتهم واحترامي في آن واحد؛ ومن دون أن أستغل سلطتي.

وكنت كذلك أيضا بالنسبة للخدام الآخرين، ولم أكن أرفض أبدا لأحد إن جاء يطلب مساعدتي، إن كان ذلك في حدود إمكانياتي. وباختصار بدأت العمل بجدية في هذا المنصب الجديد وجلب مودة الجميع حتى أصبح الأهالي يقولون إنها خسارة أن أكون مسيحيا وتمنوا أن أكون مسلما. وغالبا ما كان الباي يقول نفس الشيء عندما يمدحني أمامه أحد رجال البلاط.

وخلال هذا الوقت حصل حادث مؤلم أثار غضب الباي؛ إذ وجد مسيحيا يشغل الطحين (إنه من أوفارنيات) في الطاحون المجاور للسرايا مع امرأة في وقت لا يجعل هناك مجالا للشك في أنه مذنب فقاده الذي فاجأه متلبسا بجريمته إلى سيدي الذي لم يتمكن من إمساك غضبه ضد هذا البائس، وحكم عليه بتعليقه من أرجله في باب السجن، حتى يعطي درسا لكل العبيد الآخرين، وكذلك المرأة[1]. وارتجفت أنا وكذلك الغلمان عند سماعنا هذا الحكم. وقال لي هؤلاء في الحين، أنه ليس هناك سواي يمكنه إنقاذ حياة هذا المسكين إذا أردت، مستخدما المزايا التي أملك بقرب الباي وقد رأيت هذا الأخير في حالة من الغضب، حتى أني لم أتجرأ

1 تتكرر هذه الحالة في أكثر من مكان؛ إذ حدث عام 1779 قتلت امرأة في بايلك الشرق بحجة أنها زنت مع طبيب فرنسي. ينظر : حماش خليفة، المرجع السابق وثيقة رقم 66، ص 110.

بحادثته، الشيء الذي حتم علي الذهاب للخليفة الأكبر، أخوه، ولكثير من كبار البلاط، وأن أتوسل إليه لإنقاذ هذا العبد، وبذلنا جميعنا جهدا كبيرا لإنقاذهما، وعندما لاحظت أن الباي مترددا في تنفيذ الحكم ارتميت عند قدميه أمام كل رجال البلاط وقبلتهما، وتوسلت إليه باللغة الإيطالية وبعبارات خاصة يمكنني بها النجاح، أن قبل مني ومن كل من أراد التوسل إليه العفو لهذا العبد المذنب. وأضفت أني لأول مرة أطلب منه خدمة، وأملي أن يقبل مني ذلك. وبقي الباي صامتا لمدة من الوقت وبعد أن قال لي: إنها بلادك إني أراه أمرا جيدا فملأ قلبي السرور، حين أمر بأن يجلد هذا المسكين وكذلك شريكته 200 جلدة بالسوط لكل واحد منهما[1]، وتم ذلك وشفيا بعدها بسرعة. وهذا العفو كان انتصارا كبيرا بالنسبة لي وأعطاني الدليل ولكل الحاضرين على الود الذي أراد الباي أن يمنحني إياه.

وبعد أيام ذهبنا إلى وهران لأداء مهمة التسلية التي يقوم بها الباي عادة في كل سنة في شهر رمضان[2] بأن يذهب لقتل أو جرح بعض من

---

*1 – قررت القوانين العربية أنه عندما يكتشف أحد المسيحيين مع امرأة مسلمة يجب أن يشنق، مع شريكته التي توضع حية في الكيس وترمى في البحر، مما يدل على نظرة الكراهية التي يرى بها المسلمون المسيحيين.

*2 – يدوم صوم الجزائريين شهرا، و لا يأكلون طيلة هذا الشهر إلا في الليل؛ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، لا أكل ولا شرب ولا تدخين ولا تقرب من نسائهم. ويلتزم المسلمون بهذه الأمور إلى درجة أنه يفضل الموت عن التخلي عنه.

رجاله بواسطة طلقات المدافع أو بالبارودة (ذات الفتلة) التي تخرج من هذه المدينة[1]. أما هو، فلا يتقدم أبدا بقربهم، بل يقف في مكان مرتفع ويراقب ما يحدث، وفي هذه المرة كان لنا 11 قتيلا عدد من الجرحى[2].

وجاء شهر أفريل، فذهبت مع الخليفة لكي يقوم بدفع الدنوش التي يمنحها سيدي كل ستة أشهر إلى داي الجزائر. واتبعت سيرة حسنة خلال هذا السفر، وهو السفر الأول الذي أقوم به مع الخليفة، حتى أن هذا الأخير عند رجوعنا منه أعطى نظرة لصالحي الشيء الذي فرض عليه ألا يضع حدا لصداقتنا.

وقد بين لي بالدلائل على ذلك في كثير من المناسبات. وأصبحت في العين مستودع سره (إنها دليل قاطع على الصداقة، بالنسبة إليه). وأصبحت لا أجد صعوبة في مصاحبته عند شرب الخمر، عندما رأى أنني لا أستغل أبدا هذا التقرب، بل بالعكس عن طريق الاعتراف بالجميل أمتني أكثر بمصالحه، وكانت تقوم بيننا مشاجرات صغيرة، ولكني عرفت

---

*1 – وهي مدينة وميناء يبعد عن معسكر بـ14 فرسخ وهي تابعة إلى الأسبانيين.

*2 – كان الباي يتقرب إلى الله بالجهاد في شهر رمضان وذلك بتشديد الحصار على قادة [illegible] ومناوشة الأسبان فيها. لأنه من يموت خلال ذلك فقد استشهد أو كتبت له الشهادة أو [illegible] "شهيدا" على حد تعبير تيدنا وقد عرض هذا الأخير هذه الواقعة بأسلوب تهكمي.

كيف أدرس طبعه وسلوكه حتى عرفت كيف أستسلم له عندما يكـــون الحق معي إذا استوجب ذلك.

وأعود بالحديث عن وقت الحلة، إذ كنت في الحين مطلعا كلية على كل ما يستوجب عمله. وقد تصرفت بطريقة جيدة، ولكن ليس من دون مشقة. لم يكن لي الوقت للاختلاء بنفسي، بالإضافة إلى الحرارة المتواصلة ولأعمال الكثيرة جعلتني تقريبا مريضا، في حين أني كنت أدير كل شيء بطريقة أدهشت سيدي، وقال بنفسه أنه لم يسبق أن كانت مائدته[1] ولا خيامه ولا أعماله حسنة التسيير.

وفي هذا الوقت ارتكبت خطأ كبيرا بسبب سهوة مـــن الانفعـــال كادت أن تفقدني مودة الباي، لكنها عملت على تأكيدها أكثر فـأكثر، ومفادها إنني كنت في الطريق على رأس قافلتي، عندما لاحظت في الخلف

---

*1 – يأكل العرب ببساطة، ويجلسون على الأرض (فوق الزرابي) ويكونون دائرة. وترتفع مائدتهم عن الأرض بقدم تقريبا. وهي عبارة عن دائرة من النحاس الأبيض، ويقطع الخبز ويوضع حول أطرافها. ومنشفتهم عبارة عن قطعة قماشية تدور حول المائدة التي يضعها كل واحد أمامه ولا يقدم إلا الطبق بعد الآخر (وتصنع الصحون من النحاس كذلك) وفيها يضع كل شخص أصابعه. ولا يستخدمون للأكل إلا ملاعق من الخشب. وعندما ينتهي الطعام، في صمت دائما، يقوم الغلمان بغسل أيدي الجميع بواسطة صابون لين، وفي نفس الوقت تقدم القهوى. (يشربونها دائما صافية ومن دون سكر) وبعد ذلك ينصرف كل من أكل مع الباي بعد تقبيل يده. ولا يجتمع حول المائدة أكثر من ستة أو سبعة أشخاص.

دابة سقطت ولم تتمكن من القيام بسبب اشتداد حملــها، وفي الحـــين ناديت أحد الخدام لكي يخفف حملها حتى تتمكن من القيام ولكن لا أحد أسرع بالقدوم، فتسلطت علي موجة من الغضب وهجمت على أول من التقيت به في الطريق بضربات السوط، فاغتاظ من ذلك وقال لي إنه ليس من حق مسيحي أن يضرب أحد الأهالي وإن هذا لخارج عن القـــوانين والحقوق المفروضة عندهم على أشخاص حقيرين مثلنا[1]، ولم يكد ينتهي حتى أفقدتني أفكاره الدنيئة صوابي، فأخرجت سيفي وضربته به فلمسه في كتفه الأيسر، وكانت الضربة أخطر مما تصورت[2]. ها هو ذا رجل كسيح يركب دابته. فقال لي رئيسه بهدوء، إنني ارتكبت إثمـــا عنـــدما ضـــربته بواسطة الاتاغان (Atagan) وكان علي أن آمـــر بإعطائـــه 100 ضـــربة بالسوط وهذا يمكن ألا يروق سيدي. وكنت في غضب فلـــم أســـتمع لأحد، ولكن بعد فترة، عندما استرجعت صوابي، أنبت نفســـي لأني لم أتمكن من الضغط على انفعالي ولست أدري كيف يأخذ البـــاي هـــذا الحادث. وعندما وضعت الخيام وفرشي الأوتاق ودخله هذا الأخير جـــاء المجروح بمساعدة اثنين من رفقائه أمامه وشكى له بعرضه لجروحه وبقـــي

---

*1 يتظر المحمديون إلى المسيحيين مثلما ينظرون إلى الكلاب.

*2 أحمل دائما في الطريق سيفا وغمدا من الذهب هما ملكا لسيدي وعصا في يدي لضرب [illegible]

سيدي صامتا، وبعده قال لي فقط إنه ليس بهذه الطريقة يعامل المحمديون. وعزاه بمنحه خمس سكات.

وحالما أصبحنا على انفراد أراد أن يعاتبني ولكن عندما حكيت له ما جرى وعززت موقفي بالنفوذ الذي منحه لي على الخدم استخلص أخيرا أن الحق معي. واستغرب كل رجال البلاط من سكوته عندما تلقى هذه الشكوى التي عرضت كجريمة لا تغفر لمسيحي (على اعتقادهم)، وقد تأكدت للحاضرين السلطة التي أملكها على نفس الباي، الشيء الذي أرغم كثيرا من الرجال البارزين وفي كثير من المرات على استخدامي عندما يريدون الحصول على حظوة ما.

وأثناء هذه المحلة، كنت عرفت أكثر آداب وسلوك هذا البلد خاصة وأني أصبحت أجيد اللغة العربية. وكان كل يوم يمنحني الوسيلة لمعرفتها. وقد رأيت سيدي، الذي لم يعرف أبدا القوانين والشرائع، ولكنه كان أفقه ممن كانوا يتولون مهام القضاء، رأيته يحاكم في القضايا الأكثر غموضا التي بإمكانها أن تحير الشخص الأكثر معرفة ولكنه كان يقدم أحكامه في الدقيقة نفسها والله وحده يعرف كيف يتأتى له ذلك؛ بينما، عندما تواجهه شكاوي محيرة وهي في الحقيقة وفي بعض الأحيان سهلة للحكم عليها، كان يوجهها إلى القاضي[1] الذي كان قراره ينظر إليه

*1 – هو رجل القانون وهو الذي يبارك الزواج.

كقرار الرسول. ولا يمر يوم إلا وأرى فيه رؤوسا تقطع وعقابا بضربات العصا، وتكبيلا بالسلاسل وإرهابا آخر. وإذا وجد رجل عرف عنه أنه ثري في دوار ما، يعمل القاضي على تدبير له مكيدة ويستغل الفرصة ويقوم بضربه بالعصا حتى يمنح له مبلغا من المال، وبعد ذلك، يأتي إلى الباي ويقسم بينهما المبلغ. وعلى هذا الأساس تقدم له آلاف الشكاوي الكاذبة ضد هذا الرجل ويقول له أخيرا إنه ثري ويمكنه فرض الضرائب عليه، والسلطان ليس بالمعدم ولكنه يشع مثل كل الأتراك. ويبعث من يأتي بهذا الرجل ويكبله بالسلاسل ويعطيه كل يوم ضربات حتى يمنحه المبلغ المحدد.

ورأيت كيف يعاقب القاتل، إذ عندما يتهم رجل بهذه الجريمة، فإنه لا يهرب قطعا، يبقى ساكنا في خيمته في الوقت الذي تأتي فيه عائلة الضحية لتقديم شكاوي إلى الباي؛ ويبعث هذا الأخير لإحضار المجرم الذي عندما يسأله الباي لماذا فعل ذلك تكون الإجابة: أنه قدره. وكتبت له السماء ذلك[1] وفي الحين يطلب الباي من عائلة الضحية ماذا يفضلون

*1 – يخضع العرب إلى أوهام مختلفة وخاطئة. ويؤمنون الاختيار، بشكل يجعلهم ينسبون إلى السماء كل أفعالهم. وإذا اتهموا بجريمة ما فإنهم لا يهربون لأنهم كما يقولون إذا كتب الله المصاب، فإني سأعاقب أينما ذهبت. وإذا لم يكتبه، فإني لا أخشى أي خطر. ويعرف فيهم هذا الوهم عندما يطلبون شيئا من حاكمهم أو ربهم: لا يستعملون سوى هذه العبارة La Taroubi Menu.

(يمكنهم طلب النقود أو موت المجرم وذلك متعلق بهم قطعا) فإذا اتفقوا على الصلح فإن الباي يبهجه ذلك لأنه يأخذ نصف المبلغ، وبالعكس إذا لم يريدوا الصلح، فإنهم يستولون على القاتل ويقوم بقتله أقرب شخص للضحية في مكان يبعد عن خيمة الباي بـ 20 خطوة وفي حضور الباي من دون أن يمكنه التدخل رغم نفوذه المستبد إلا إذا أراد أن يخالف القوانين. وقد رأيت في هذه المحلة قطع رؤوس سبعة أشخاص في أقل من عشرة دقائق لأنهم سرقوا بضعة أغنام من أحد الدواوير، وبعد أن ينفذ الشاويش هذا الحكم يؤخذ هؤلاء المساكين من ذيل شعرهم الذي يتركه المسلمون طويلا، ثم يخرجوا سيوفهم، وبضربة واحدة تكفي لسقوطهم وهكذا فعلوا لكل الأشخاص السبعة[1].

كل هذا يجري أمام الباي. وبعد ذلك يمسحون سيوفهم بملابس الضحايا ويرجعونها إلى أغمادها، ويظهرون أمام الباي مرة أخرى هادئين

1- قطع الرؤوس عادي جدا في كامل أنحاء البلاد فقد جاء في مذكرات علي بن حمدان خوجة، وصف رحلة، المرجع السابق، كيفة القتل الدائم، وأن غرفة كبيرة كانت بمدينةقسنطينة يجمع فيها المسجونون قبل قتلهم. مثلما تحدث عن قطع رؤس 25 شخصا في بلاد الحنانشة بما يمكن ترجمته، فقال: وأُخذَ الجميعُ إلى مكان التعذيب مقيدي الأيادي، ولم يتوقفوا عن الصراخ قائلين: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فتسللتُ من تحت الخيمة وأسرعت إلى مكان التنفيذ (بطحة الدم) فرأيت عملية قطع رؤوس أولئك المساكين، الواحد تلو الآخر. إذ كانت ضربة واحدة خفيفة من طرف الشاوش كافية لقطع رأس واحد.

وكأنهم كانوا يدخنون. كل هذه الأحكام تنفذ أمام الباي وكل رجال بلاطه ولا أحد منهم يتأثر بشيء وذلك بسبب تلك الخرافات التي يخضعون لها، وأظن أنه ليس هناك إلا أنا والغلمان المسيحيون في كل المحلة الذين يرهبهم مشاهدة سفك الدماء.

وصلنا تقريبا إلى عشية انتهاء المحلة، وقررنا الرجوع إلى المدينة، ولكنه أصبح سيدي مذنبا بارتكابه جريمة، بسبب انفعاله الشديد، ولم أتمكن من مسامحته رغم ما رأيته يرتكب من أهوال. وقد تم ذلك حين كنا سائرين، عندما وصلت إلى حيث نزول المحلة، فعندما نصب خيمة صغيرة للباي كالعادة لكي يحمي نفسه من الشمس في انتظار أن تقام الأوثاق. كنت في ذلك الحين مع قافلتي، عندما رأيت رجلا فوق خيله مهرولا نحوي لا أدري ماذا ظننت عند رؤيته، وقدم إلي مباشرة وقال لي اذهب إلى الباي لمحادثته. وفي الحين لدعت فرسي الذي كان أجود من حصان المرسّل فاجتزته. وعندما وصلت إلى الباي الذي قال لي حينما كنت أقرب منه and été uréarmi duc pistolc corrigate en du bale orgnuno، اندهشت لما أمرني به وعندما سألته ماذا سيفعل بها أجابني بغضب شديد: v'ho detto di portarnie due pistole الشيء الذي زاد من دهشتي وجعلني من الهلع. وكانت أسباب وجيهة عشية أمس حيث أرغمت (...) غير عادق) للخضوع له. (وكان ذلك من أجل منع تقلين من

البارود إلى شباب من المسلحين في الطريق) وخشيت أن تكون الفرودتين المطلوبين موجهتين إلي مما أضاف رعبا إلى هلعي، ومما زاد في خوفي الطريقة التي طلب بها مني؛ لأنه من عادته كان يطلب واحدة فقط ولكنه هذه المرة طلب اثنتين. ولكن كان علي أن أرضخ للأمر وكنت أرتعش فذهبت إذن وبعد أن لحقت بقافلتي التي كانت تسير ببطء، فدخلت المخازن حيث أعرف أن الفرود/المسدسات كانت توجد هناك، وأخذت اثنين وحشيتها بالبارود مثل ما أمرني به وأعطيتهما للباي وأنا دائما جامد من الرعب، وأمرني هذا الأخير بالانصراف بعد أن أخذهما. وهذا ما فعلته، فعرفت بالطريقة التي أصرفني بها، أنني لا يجب أن أخشى شيئا وكنت في الخيمة الكبيرة في انتظار قدوم القافلة حيث كنت ترقبت شيئا سيحدث أكون فيه المتفرج. ولم يكن رجال البلاط أقل مني دهشة عندما طلب مني الفرودتين وبقيت انتظر الفعل المشؤوم الذي سوف ينتج عن هذا، وكنت أنزع جزمتي عندما سمعت أصواتا متعددة تنادي أدى بلهيج (Belahége Ada) (إنه رجل مستقيم وأنا أعرفه شخصيا) وبما أنه كان دائما يتبع الباي، لم يكن أبدا، ويا للأسف بعيدا ورد في الحين. وتقدم منه، وفي الحال أطلق عليه الباي ضربة من فرودته لم تصله، فأرغم نفسه بطلق أخرى فأسقطت المسكين من دون حياة.

يا لها من دهشة بالنسبة إلي وبالنسبة للجميع لرؤية هذا المشهد الشنيع، لم أتمكن من الإدراك كيف استطاع الباي أن يصمم على تدنيس يديه بموت أحد مأموريه (كان لهذا الحد مذنبا). اعتقدت في اللحظة، وعلى هذا المثال وأمثلة أخرى لا تعد أنه متمكنا من كل الوحشية. لم يجرأ أحد على القول أو الإشارة عند رؤيته في هذه الحالة من الغضب، لا حتى أخوه ولا أعزائه الأكثر تقربا به.

وأخيرا جاءت القافلة، وفي الحال عندما أصبح كل شيء جاهزا، قلت لسيدي أنه بإمكانه الدخول إلى خيمته في الوقت الذي يريده. ودخلها فعلا بهيئة شديدة الغضب منعته من النطق بكلمة واحدة منذ موت هذا المسكين.

وعندما جاءت ساعة العشاء، وقدمته له. رفض الأكل، وانعزل في خيمته، لم أكن أدخل هذه الخيمة أبدا إلا إذا تحتم الأمر لذلك وحينما دخلها وأمر غلمانه بالانصراف، كلف أحدهم بأن يقول لي إنه يريدني. [illegible] وكنت متعجبا عندما تقربت منه وأمرني بأن أذهب لأحضر زجاجتين من الخمر لكل منا[1]، وعند رجوعي وبعد أن لاحظت أنه يمكنني التحدث إليه من دون خوف. قلت له إنه قام بعمل لا يليق بمرتبته

1 - كان علي أن احمل دائما الشراب (Liqueur) أو الخمر وهو عنب المسك والمصنوع في لونيل (Lunel) أو فرانتينيان (Frontignan) تلك هي المفضلة لدي.

وإنسانيته وسلوكه الذي عرفته فيه في ذلك الوقت وإنه أدخل في قلوب كل رجال البلاط الهلع والدهشة (فقال لي) نعم ولم يمنعني أحد. فقلت له: من يستطيع التحدث إليك؟ كنت أريد مكالمتك عندما أمرتني بإحضار فرودتين وفي الحين قطعت عني الكلام. فقال لي. والآن، ذلك كان يجب أن يقع. وبعد العبارات التي قالها تستحق أن أنتقم. ذلك ما رد عليّ به هذا السلطان عن جريمته، في حين، يظهر أنه ندم على ارتكابها، وما بين ذلك أنه منح مبالغ كبيرة من النقود إلى وراثي الضحية. وعرفت فيما بعد أنه قال فقط إنه منذ حكم هذا الباي لا تمنح المراتب إلاّ إلى من يستحقها بل إلى من يربحها، وكان هذا ثمن حياته.

وبعد بضعة أيام من هذا الحدث المؤلم، رجعنا إلى معسكر، وفيها كانت لي بضعة أوقات لأهتم بنفسي لأتمتع بالهدوء وتسمح لي الظروف بأن أكتب إلى عائلتي التي لم تدخر جهدا لكي تتمكن من إعادة شرائي وتشفع قنصل فرنسا والإخوان الثالوثيين له. لذا كتبت أيضا إلى هؤلاء السادة كثيرا، وكذلك إلى عامل ساعات ارتبطت به، وعملت لنفسي بواسطته مكتبة صغيرة في معسكر، وكانت غريبة في بلاد مثل هذه، وكان الأهالي المحيطون بي يندهشون لرؤية كتب كثيرة. وفعلا فإنهم لم يروا قبلها مثلها.

إنهم شعب جاهل إلى حد أنه لا يوجد في معسكر وهي مدينة كبيرة نوعا ما، أكثر من 100 شخص يحسنون القراءة، وهذا الجهل يعطي احتراما بسيطا إلى كل من يعرف ولو حرفا واحدا من القرآن، وينظر إليهم من بسطاء الشعب كقديسين، ولم يفتئوا أن اعتقدوا أنني [illegible] تعويضهم في خرافاتهم بشكل أنهم كانوا يقدمون إلي ويتوسلون لي في كل وقت حتى أقدم لهم بعض الكتابات تجعلهم محبوبين من المرأة أو من سيدهم، أو تجعلهم قادرين على تحدي طلقات البنادق. كنت أتسلى بكل هذه المطالب التي تعلمني جيدا ببلادهم. والشيء الذي حيرني أكثر هو مشاهدة من بين هؤلاء الجاهلين، يوجد في بعض الأحيان أناس مستقيمون ولهم مناصب عالية، يأتون إلي ويطلبون مني نفس الشيء.

وخلال الشهور الثمانية التي قضيناها في المدينة، كان سيدي يقوم بكثير من الجولات، إما لصيد الخنزير[1] أو لسباق الخيل، مصحوبا برجال بلاطه. وكنت أحسن ركوب هذه الخيول العربية وأهرول بها، وفي يدي البندقية أطلق الرصاص منها بمثل السهولة التي يملكها المغاربة الذين يقومون باستقامة كبرى في هذه الأنواع من التدريبات وفي بعض الأحيان

1- لا يقوم بجولات صيد أخرى، رغم أن المحمديين لا يأكلون الخنزير بل يتركونه في المكان الذي يقتلونه فيه، بعد أن ينزعوا أسنانه.

نذهب للغزو[1] عندما تخالف بعض المقاطعات الباي سواء بعدم إطاعة مطالبه التي لا يتوقف عن مطالبتهم بها أو عندما تحدث بعض المشاجرات (الشيء الذي يحدث غالبا) ويسكت لمدة من الزمن ويتظاهر بالسماح لهم، وعندما ينسوا ما حدث يجمع من سبعة إلى ثمانية آلاف رجل ويذهب سرا، ماشيا في الليل والنهار من أجل سلبهم كل ما يملكون[2].

كنت دائما وفي أي مكان إلى جانب سيدي، الذي لا يتوقف أبدا عن الرمي بإطلاق النار. وكان دائما على رأس جيشه عندما يدخل إلى الدواوير، وكنت في بعض الأحيان أتفرج على أشياء ترعبني، ففي مرة كنا في إحدى هذه الغزوات تبعد 200 فرسخ عن المعسكر من الجنوب، في بلد لم يعترف أبدا بأي حاكم. وكان جيش الباي مكونا من حوالي 15000 رجل وتمكن من الانتصار رغم المقاومة التي وجدها والتي خسر فيها ثلاثين شخصا من رجاله من بينهم 5 أو 6 من البارزين.

*1 – لا أستطيع تسميتها سوى غارة أو سرقة.

*2 – في كل مرة حين يخرج فيها الباي لتنفيذ مثل هذه الغزوات، يكتب لكل مقاطعة ويأمرها بأن تجهز عددا من الرجال حسب قوتهم من دون أن يذكر لهم ما سيفعل بهم، لأن هؤلاء الرجال لا يعرفون في بعض الأحيان أين يتجهون، إلى أن يعين ساعة القتال وكل رجل في هذا البلد هو جندي، وعلى كل شاب ذي 16 سنة أن يكون له حصان وبندقية وأن يستعد دائما إلى السير للمشاركة في المعركة.

وقد نهبنا 14 أو15 دوار الشيء الذي يدفع إلى المبالغة وإلى غير المعقول رغم أن هذه هي الحقيقة، وأخذنا كذلك 67000 رأس من الحيوانات الصوفية ,5000 جمل و653 دابة و720 بقرة وثورا، أما حاجيات الخيام فهي أبيحت ملكا للفرقة بأن سمح لمن يريد أو من يتمكن منها أخذها، وأخذنا ستين شخصا كذلك، أغلبهم من النساء. وكان الباي عندما ينتهي من جمع غنيمته يرجع إلى منزله. يبيع لكل المقاطعة وللرجال المكونين لجيشه طيلة مدة المحلة ما تمت غنيمته، فيقوم رجال كل مقاطعة بالتجمع ليأخذوا حصتهم ويقسموها بينهم عند وصولهم، حسب ثروة كل شخص.

وبما أنهم يربحون كثيرا من شراء القطعان التي لا يدفع ثمنها إلا النصف، فإنهم لا يزعجهم سلب إخوانهم، في انتظار أن يسلبوا بدورهم، ذلك ما يخشون منه دائما.

ورأيت الباي يرسل كتبا للبلاد التي يريد سلبها، حتى يفاجئهم الخ، ويأمرهم بأن يجمعوا عددا من الرجال وأن ينتظروه في مكان ما بعد أن حدد لهم اليوم.

وفي الوقت الذي ينتظر فيه الرجال في المكان المحدد، يكون قد شنّ الغارة على الخيام وأخذ كل شيء حتى النساء والأطفال. وفي بعض الأحيان، لم يكونوا مغشوشيه خاصة عندما يعرفون أنهم لم يطيعوه،

فيكون هذا الأمر قد عمل على تحريرهم من يده، وينعزلون في الجبال الوعرة المسالك بالنسبة للجيش. حتى يحصلوا على مسامحته، ولا يمكن لهم الحصول عليه دون دفع خسائر وأرباح معتبرة. وفي بعض الأحيان يتظاهر بأنه خارج إلى الصيد حتى يفاجئ ضحاياه.

وفي هذه الغزوة، شاهدت أجمل السهول من بين تلك التي رأيت من قبل، إذ عندما نقف في الوسط، يظهر لنا وكأننا موجودون في وسط البحر، ولكن إنها لخسارة، إذ لم نر ولو دوارا واحدا، فكانت شاغرة من سكانها وغير مزروعة رغم الخصوبة التي تظهر منها. وأردت أن أسأل ما السبب الذي جعل هذا البلد الجميل مهملا. وأجبت أنه ليس هناك مياه، مما أكد لي أن المغاربة يجهلون استعمال الآبار والخزانات، وفعلا فإنهم لا يستعملون سوى مياه الأنهار، في حين أني لا أنسبها إلى هذه الصعوبة إذ كان هذا البلد خاليا من السكان، فالأمر يعود فقط إلى انعدام السكان الذي لم يسمح إلا بزرع مساحة من الأراضي، وغالبا ما تكون هذه المساحة للفئة التي تسكن هذه السهول القريبة من المدن. ولا تمر سنة من دون أن تكون هناك إحدى تلك الغارات، بعضها معتبر وبعضها الآخر أقل اعتبارا. وفي بعض الأحيان من دون تأثير. وهنا يزداد ألمي، وما يواسيني، أنها لا تدوم طويلا، لأنها دائما تأتيني منها منفعة كبيرة. وقد كسبت في بعضها 50 سكة سواء من التي يعطيني إياها الباي أو من ال

يعطيني إياها كبراء البلاط الذين تنقصهم المؤونة في بعض الأحيان بسبب ذلك أن كبراء البلاط لا يعرفون كم تدوم الغزوة، وعندما تقل مؤونتهم يتقدمون إلي ويطلبون مساعدتي، ولا أرفض خدمتهم، لذلك كانوا يكافئونني بكرم.

سادسا

مغامرات تيدنا في القصر

كنت في هذه الفترة أعيش السنة الثالثة من عبوديتي، وكان أبي يكاتبني دائما ويعدني بقرب فديتي، وقد أكد لي في رسالته الأخيرة أنه سيضحي بـ 3000 جنيها في سبيل ذلك في حالة ما إذا لم تنجح مساعي أسقف الثالوث المقدسي[1] لمقاطعتنا التي وعده بها، فكانت هذه الآمال تواسيني، إذ كنت بطبيعة الحال أرغب في التحرر لأني كلما عرفت عادات وسياسة البلاد كلما أحسست أن مصيري غير مضمون -رغم سعادتي-، سيدي نفسه لم يكن مصيره أضمن من مصيري حيث كان خاضعا كليا لسلطة وتقلبات داي الجزائر الذي كان يستطيع قطع رأسه متى شاء. فالباي السابق حجي خليل (Agikhalil) قد سمم بأمر من داي الجزائر[2]. لذا فإن الموت نفسه يستطيع أن يحرمني من هذا المحسن، كما يمكن أن أفقد صداقته إما بفعل تقلباته وإما بوشاية من بعض الأعداء الذين لا يمكن تحاشيهم، أو حتى بسبب سوء تفاهم قد ينشأ بيننا بمرور

1- تأسست رابطة الثالوث المقدسي عام 1198 وتكفلت بشراء العبيد والأسرى

2- كان هذا يحدث باستمرار في بيالك الجزائر. وفي بايلك قسنطينة أيضا تم قتل كثير من البايات بواسطة الباش آغا الذي من مهامه مراقبة الباي وخلعه وتعيين غيره.

الزمن، وفي ذلك الوقت- أخشى أن لا يفرقني من بين أتعس العبيد. كل هذا جعلني أفضل البعد عن خير غير مضمون وأعلم أني لم أحسن التصرف فيه.

أما في بعض الأحيان فكنت أنسى تماما أني عبد وأسلم نفسي لبعض الملذات التي كنت أمارسها أثناء الفرص المتاحة لي؛ لأنني كنت معروفا في المدينة وأملك العديد من الأصدقاء من الشباب المرموقين فإنهم يدعونني دائما لحضور حفلاتهم وأعراسهم.

كان الشرط الأول للزواج - حتى لا يكون حراما[1]- أن لا يسبق أن رأى أحد العروسين الآخر، وبعد التأكد من هذا يتفق الشاب مع الشخص الذي سيصبح صهرا له على المبلغ الذي سيدفعه له مقابل تزويجه بابنته (إذ أننا - من هذا البلد- يجب أن نشتري المرأة التي نريد الزواج منها) وبعد الاتفاق الذي يكون حسب إمكانياتهم يذهبون مع بعض الأصدقاء إلى القاضي وتقرأ الفاتحة[2] ثم يتفقون على موعد العرس. وفي ليلة ذلك اليوم تصبغ العروس[3] يدها بالحناء[1] وفي الصباح يحضر الطعام

1- كلمة حرام تعني شيئا ممنوعا (محظورا) بأمر من السماء.

2 - هي طريقة تبرك (مباركة) الزواج كل الأشخاص المهتمين- القاضي والحاضرون - يمدون أيديهم مبسوطة قريبة من وجوههم ويقومون بقراءة صلوات بصوت منخفض رافعين أعينهم إلى السماء، وينتهون بتمرير أيديهم على لحيهم، وبذلك يتم عقد الأمان والاتفاق.

3 - هي المخطوبة و لم تكن تزيد أبدا عن13 او 14 سنة

للضيوف-ولم يكن لذيذا- كان الرجال يجلسون في منزل مستقل عن منزل النساء اللائي لا يتركن العروس وحدها ولا ينقطعن عن إطلاق الزغاريد حتى يأتي العريس. وأخيرا يأتي العريس ليقوم بالزواج.

يدخل العريس إلى منزل عروسه فيجدها وحيدة، جالسة على سرير، مزينة يغطي وجهها منديل من الحرير. وبعد إتمام الزواج يدخل الأب ويخرج العريس ليعود إلى المدعوين. يجرد الأب ابنته، ويأخذ قميصها الذي يهدأ من روعه فيريه لكل ضيوفه ثم يرسله إلى الأصدقاء ليبرهن للجميع على عفاف ابنته. وكانت الأفراح في الأعراس تتناسب مع ما يمثله القميص، كانت هذه الأعراس مملة بالنسبة لمسيحي، وكانت رقصاتهم المحلية تظهر خشونتهم مما يجعلني أنسحب كلما كنت حاضرا.

بعد أن ينتهي الزواج وتنتهي الأفراح يأخذ الزوج زوجته إلى بيته (حيث أن العرس يتم دائما في بيت والد الفتاة لكن على حساب الصهر). ويجب على الزوج الجديد أن يعتني بها وأن لا يقصر من واجباته نحوها وإذا قصر في ذلك يكون باستطاعة المرأة أن تذهب إلى القاضي وتفسخ ذلك الارتباط.

1* – هي نوع من النبات تنشف أوراقها وتطحن وتصنع منه عجينة تغطي بها الأيدي في الليل قبل النوم وفي الغد قبل غسلها – نجدها ملونة بلون أحمر جميل ممزوج بالأصفر ويدوم هذا اللون مدة طويلة، وكان الموريون يستعملونها أيضا لتلوين ظهور وأرجل خيولهم وكذلك للجروح قائلين بأن ذلك يخفف الألم.

وقد كان هذا شائعا جدا وأراه -كمسيحي- سيئا جدا وخاصة إذا كان بينهما أطفال حيث يحدث في هذه الحالة أن يأخذ الأب الذكور من أبنائه وتأخذ الأم البنات منهم وينفصلان إلى الأبد. هذا ما لا نراه عند المسيحيات إذ أن الأم المسيحية تتمنى الموت على أن تترك ولدها إلى الأبد، أما هنا فالنساء الموريات يتخلين عن أبنائهن من دون أن يشعرن بأي ألم (عدا حالات شاذة) وقد شاهدت بعض هذه المناظر الفظيعة.

كنت أحضر أحيانا موت بعض العرب، فبعد موت الميت مباشرة يجتمع الأهل والأصدقاء ويصدرون صراخا يمزق القلب، بعد ذلك يغسل الميت بالماء المعطر مبتدئين بالرجلين ولم يكن يسمح بلمس المكان الذي تم غسله وبعد الوصول إلى الرأس يمسك من الشعر المجمع على الرأس على عادة الموريين. وبعد الانتهاء من الغسل يكفن الميت في قماش جديد.

ويذهب الجميع إلى الأكل، وبعد الانتهاء من ذلك يحمل النعش إلى القبر وهو عبارة عن حفرة متوسطة العمق رشت بالماء ليوضع بها الجثمان ويغطى بالحجارة بكل عناية وترتب بحيث لا تسقط ذرة من التراب عليها وقبل غلق الحفرة توضع تحت رأس المتوفى رسالة تحمل توصية أو شفاعة إلى محمد نبيهم. كل ذلك كان ينفذ بسرعة ومن دون انقطاع، وينسى الميت بعد دفنه بأقل من خمس ساعات.

لقد كان يسعدني كثيرا أن أكون وسط حلقات أو مجتمعات من أعيش معهم، فيما أنهم كانوا لا يعرفون استعمال الكراسي فإنهم يجلسون حيثما تلاقوا ولو كان ذلك وسط الطرقات، هنا يتسامرون ولم تكن أحاديثهم – وهم يدخنون غليونهم ويمررونه من أحدهم إلى الآخر– إلا حول خيولهم أو أشياء تدل على غباوتهم، فإذا سألت أحدهم مرة عن عمره أو سنة زواجه يقول دائما بأنه ولد أيام حكم باي معين أو عندما كانت البناية المعينة تبنى. وأنه تزوج من زمن كذا أو كذا وهذا ما أكد لي تماما جهلهم، وقد كانوا إذا أذن المؤذن (الإمام)[1] للصلاة ونحن جالسين نتحادث يقفون ويؤدون صلاتهم متوجهين نحو مشرق الشمس، هذا إذا كانوا متوضئين إذ كان لا بد من غسل أرجلهم وأيديهم ووجوههم قبل التوجه إلى الصلاة، أو كامل الجسم إذا كانوا قد قاربوا النساء أو أحسوا أنهم قاموا بذنب مدة ما بين الصلاتين، وبما أني كنت أرى دائما كيف يصلون فقد حفظت كثيرا من الكلمات والحركات التي كانوا يقومون بها

*1 – إنه الشخص المكلف بدعوة الجماهير إلى الصلاة وذلك من أعلى برج وما يقوله يعني تقريبا بأن الله كبير، وأنه كامل وبعده يأتي نبيهم، وكان يردد هذا عدة مرات، وساعات الصلاة هي الصبح – ساعة قبل النهار – الفجر عند شفق الصباح، والظهر على الساعة الواحدة بعد منتصف النهار والعصر على الساعة الرابعة بعد منتصف النهار .والمغرب عند غروب الشمس وأخيرا العشاء بعد ساعة ونصف من غروب الشمس.

مما سهل علي تقليدها، وقد أضحكت كثيرا المجتمعات التي كنت أعيش وسطها في فرنسا بهذه التصنعات (التقليدات).

من خلال كلامي هذا نستطيع أن نلاحظ بسهولة أني كنت أتمتع بكامل الحرية التي سهلت لي – نظرا لحب الجميع لي – أن أدخل كل مكان حتى على الجنس الآخر، وهذا ما كان سيقضي علي، حيث لم أكن أجد أية عقبة في طريقي للفجور والدعارة فتماديت في هذه الشهوات رغم علمي بالخطر الذي أضع نفسي فيه، والأمثلة التي شاهدتها من أشخاص تلقوا عقوبات، ورغم إدراكي بأن سيدي لا يخفى عليه أمر ويعلمه بسرعة.

لكن ولحسن حظي كان ذلك في فترة كنت أحظى فيها بالصداقة الكبرى لسيدي مما جعلني لا أتلقى منه إلا ملاحظات دون تهديد مما يعبر لي (كان يثبت لي) عدم معارضته لتمتعي لو كان ذلك يخصه هو بنفسه ولكن المشكل – كما يقول – هو الاحترام الإنساني الذي يجعله يفرط في أشياء قد يندم عليها طول حياته.

كل هذا لم يمنعني من اتباع حياة فاسدة – دون أن أهمل واجباتي نحو دولتي – كنت أقضي معظم الليالي خارج البيت دون أن يكتشفني أحد ماعدا ليلة واحدة عندما خرجت ملتفا بحائك ومعطف أسود على طريقة الموريين، حيث قابلني أحد الخدم المكلفين بعناية خيل الباي عند

مدخل مكان مشبوه وعرفني فأبدى اندهاشا دون أن يقل شـيئا وقـد فاجأني ذلك الصمت كثيرا.

وكان يرافقني صديق مرموق كانت تربطني به روابط وثيقـة، لمـا عرف ما أحزنني قال لي بأنه يمكن تجنب كل خطر من طرف هذا الخادم بإعطائه شيئا وسيكون سعيدا لمغامرته، وبالفعل أعطيته أربـع محبـوب (Mahaboubs)[1] فانسحب واعدا ومقسما بلحيته[2] بأنه لن يـتكلم عـن شيء، واطمأنت قليلا بعد هذا القسم، ولكني مع ذلك انسحبت بسرعة.

كنت أدخل دائما سرايا سيدي[3] حيث كان يستدعيني لإعطـائي بعض الأوامر أو إحصاء أموال الضريبة وذلك عندما يكون هو أو خليفته على أهبة للسفر. إلا أن أطول مدة كنت أقضيها في السرايا كانت عندما

*1 – 30 جنيه تقريبا.

*2 – كان هذا القسم طبيعيا لديهم وكانوا إذا أقسموا به لا يخالفونه – غالبا – أبدا.

*3 – كانت تتكون من 120 امرأة تقريبا من بينهن الأربع سلطانات والوصيفات الحرات أو الأمات. هؤلاء النساء لا يخرجن إلا مرة كل سنة لقضاء يوم كامل في حديقة الباي وكن يخرجن قبل طلوع الشمس بساعة ويرجعن بعد غروبها بساعة وذلك حتى لا يراهن أحد. وقبل الخروج يعلن إلى الجميع أنه يمنع على أي رجل أن يقترب من هذه الحديقة على مسافة معينة، وفي هذا اليوم يسمح لكل امرأة محترمة أن تدخل هذه الحديقة حيث توجد السلطانات ونساء كبار الشخصيات. والقرآن يمنع النساء من مقابلة الرجال ولذلك كن يخرجن للذهاب للحمامات العمومية أو غيرها من المصالح متسترات ولا تبقى إلا عين واحدة مكشوفة لترين الطريق.

نريد صنع الشمع[1] حيث يكون لدي الوقت الكافي لرؤية جميع النساء به مما جعلني معروفا لدى جميعهن كما كنت مقربا لدى الكثيرات منـهن. لقد توصلت حتى للحديث مع السلطانات اللواتي كن يـتطفلن للكـلام ورؤية مسيحي، يرغبن في ذلك رغم تحريم القانون الذي يتبعنه لـذلك. وقد توصلت إلى كسب حب إحداهن حتى أنها كانت تقـدم لي هديـة كلما دخلت السرايا، وكنت أرد على ذلك بأشـياء أخـرى لم تكـن موجودة بالمدينة وكنت أجلبها من الجزائر.

*1 – كان يصنع فرديا، بشمع أصفر وقطعتين طويلتين من الخشب ذات طول واحد ومفتوحة من كل جانب تعلق الواحدة بالأخرى على شكل صليب ونربطها من الوسط في عارضة أرضية البيت بحيث يصل الصليب إلى حد حزام الشخص ثم نربط أحد أطراف الصليب بخيطين أحدهما رفيع والآخر شديد وبعد ذلك نرتب فتائل من القطن –تكون قد حضرت مسبقا– على الخيط وتكون بطول الخشب بعد ذلك ندخل الخيط من الثقب الموجود بداخل القطعة الخشبية ونفعل هذا مع الجهات الأربعة للصليب وكذلك بالنسبة للفراغ الموجود بينها.

بعد ذلك نحضر قدرين من الشمع المخلوط بقليل من الزيت أحدهما على النار دائما، والآخر نستعمل منه، وبعد أن نسوي المسافة بين كل فتيلة وأخرى نصب عليها الشمع بملعقة خاصية خاصة بذلك، ونبدأ دائما من أعلى إلى أسفل ونسير هكذا من واحدة إلى أخرى بإدارة الصليب بشكل يجعل الشمعات تمسك من دون أن تنشعر.

كان علينا أن نثبت القدر فوق الفتائل مباشرة حتى يدخل الشمع فيها ويمكن تغيرها إذا كان الشمع قد برد كثيرا.

بهذه الطريقة كنت أتمكن من صنع 400 شمعة خلال 8 أو9 ساعات من الزمن.

أستطيع القول إنني لو لم أكن أخشى انتقام سيدي لتطورت هذه الصداقة التي تكنها لي إلى أقصى الحدود. إن الشيء الذي أدى بهذه المرأة أن تتعلق بي هو صداقتي لاثنين من أبنائها اللذين كنت استلطفهما وكان أكبرهما يبلغ من العمر سبع سنوات تقريبا، فقد كانا معي دائما في غرفتي أغمرهما بحناني، لهذا كانت أمهما التي تتمتع بثقافة حسنة تعبر لي عن تقديرها وامتنانها بمنحي حبا كان يدهشني.

في يوم كنت في السرايا فدخل الباي ووجدني أحادث إحدى محظياته التي هربت بمجرد رؤيته وبقيت أنا مسمرا في مكاني لا أقول شيئا فقال لي بصوت ينم عن غضب شديد عن أي شيء كنت تتحدث مع هذه المرأة؟ ولحسن حظي كنت أحمل زجاجة فارغة فقلت له بأن ماء الزهر قد نفذ من المخزن فطلبت منها أن تعطيني قليلا لأمسح به عيني اللتين تؤلماني منذ بضعة أيام. بعد هذه الإجابة انصرف وتركني في ألم شديد.

بعد خروجه مباشرة أسرعت إلي المرأة تسألني عما قال لي وبعد إخبارها قالت لي بأنها فرحت جدا لانتهاء الأمر على هذا الشكل وأنها كانت تنتظر أن يعاقبها، وهكذا كنا متساويين في درجة الخوف.

أما بالنسبة للوصيفات فكن دائما بالقرب مني لإثارتي، ومساعدتي علي صنع الشمع. وكانت من بينهن واحدة صغيرة جدا ولطيفة رغم

سوادها، فكنت أغريها وأسعى لكي تعمل معي فكانت لا تمانع وتعمل كل ما في وسعها لمساعدتي وبهذا استطعت أن أحادثها مرارا وبعد عدة لقاءات ومحادثات حرة اقترحت علي أن نلتقي فوق سطح البيت كل ليلة حيث وعدتني أن تأتي للقائي دائما، كنت شابا وميالا للفجور ولذلك لم أتردد في الإجابة بأني لا أطلب أكثر من ذلك. لم تكن تخلف وعدها أبدا وكذلك أنا وهكذا كنا نتمتع بلقاءاتنا من دون أن نقدر الوضع الذي كنا نعرض أنفسنا له؛ كنت عن طريقها أعرف كل ما يجري بالسرايا والذي كان في بعض الأحيان يهمني معرفته.

مرت على معرفتي بهذه المرأة مدة طويلة لما وقع لي حادث جعلني أحمد الله على معرفتي لها، زيادة على كونها ضرورية جدا بالنسبة لي.

لقد عرفت امرأة منذ زمن بعيد بالمدينة ثم انقطعت عنها فأرسلت إلي تلح علي عودتي لها وترجتني أن لا أحرمها من رؤيتي مضيفة بأنها تنتظرني في نفس الليلة في بيتها وإذا لم أرد ذلك فلأدعوها إلى أي مكان أريد وستكون هناك. كانت هذه المرأة تتأسف وتشتاق لأموالي أكثر منها إلى شخصي، وكنت أعلم هذا إلا أنها كانت جذابة ولم أكن أتخلى عنها لولا أنني كنت لا أستطيع رؤيتها دون أن أكتشف. حيث أن منزلها كان محاذيا بمنزل خدم سيدي. ونزولا عند ميولي الفاسدة وإلحاحها وعدتها أن نلتقي بحديقة الباي على الساعة السابعة مساء. وكانت هذه الحديقة

مكان تتزهي دائما لذلك اخترته حتى لا أجلب انتباه أحد. والتقينا بعد أن وضعت أربعة حراس ممن أثق بهم على مدخل الحديقة حتى لا يفاجئني أحد.

لكني احترست من الذين في الخارج دون أن أفكر في الذين يمكن أن يكونوا في الداخل هكذا وبمجرد لقائنا ألفيت رجلا يقترب منا وعرفته أنه أكبر أعدائي.

لقد كان يمقتني بسبب إمريت بجلده 200 جلدة -منذ مدة قصيرة- وذلك لأني وجدته يسرق شيئا لسيدي.

ارتبكت كثيرا لذلك ولم يبق عندي شك بأنه شاهدنا وعرفنا فرجعت والخوف يملأ قلبي متأكدا أنه لن يضيع هذه الفرصة للانتقام مني بإخبار الباي عن هذه الحادثة التي ستعظم الأولى (الحديث مع محظيته) التي كانت من الممكن أن تجعله يعاقبني ويحرمني من حبه.

بما أن الوقت كان ليلا فإن عدوي لم يستطع مكالمته إلا في الغد مما جعلني أكلم وصيفتي، إذ حكيت لها عما جرى لي وقلت لها بأنها الوحيدة التي تستطيع إنقاذي من العقاب الذي يهددني وأنه يجب - لذلك - أن تكلم لالة كريبة (Quiriba) (وكانت السلطانة التي تعزني). فلما حكيت لها مغامرتي ورجوتها أن تحميني مما يحدق بي من نتائج وخيمة. وأنها الوحيدة التي تستطيع التدخل وأني أنتظر هذا العفو منها.

تأثرت هذه المسكينة بهذه الرواية حتى أنها أجهشت بالبكاء وأخذت تؤنبني. وبعد تهدئتها وعدتني وهي تفارقني بأنها ستكلم سيدتها بمجرد استيقاظها. ولم تخلف وعدها، وكذلك الموري الذي جاء لإخبار الباي بأنه رآني في حديقته مع امرأة، وفي الحين امتلكه الغضب وقام ليدخل بسرعة إلى السرايا تاركا مجلسه حائرا، وانتشر خبر غضبه بين جميع نساء السرايا والسلطانة المعنية التي تعلم بعد أن أخبرتها الوصيفة سبب هذا الغضب الذي تملك زوجها فأسرعت إليه.

لم تستطع أن تجعله يعترف بسبب غضبه إلا بعد جهد كبير وبعد أن أخبرها عن ما قيل له عني -والذي كانت تعرفه - قال لها بأنه دخل السرايا حتى يدعوني إليه ويجلدني بنفسه -بعد أن تمسكني أربع وصيفات- 600 جلدة بالعصا.

هنا تدخلت منقذتي التي كانت تتمتع بنفوذ كبير على زوجها مستعملة كل ما في وسعها لتهدئته وتبريري من التهمة قائلة بأني لا يمكن أن أفعل ذلك وأن الرجل الذي كلمني يمكن أن تكون بيننا عداوة جعلته يتصدى لي. وأن دليل براءتي هو سلوكي في السرايا مع النساء كلما كنت [illegible] وأنه قبل كل شيء إذا عاقبني بالطريقة التي قال عنها فإني لن أستطيع العمل وبذلك يحرم نفسه من خدماتي التي كانت ضرورية لمصالحه.

هذه الحجج وغيرها استطاعت السلطانة أخيرا أن تهدأ زوجها الذي أرسل غلاما لإحضاري بمجرد إخراجها. كانت عروقي قد تجمدت بمجرد قيامه من الحديقة ودخوله السرايا وزاد ذلك عندما قيل لي بأنه يدعوني، وكان لابد من الطاعة والتظاهر بأني لا أعلم سبب دعوته لي اصطنعت عدم الخوف وتقدمت منه بوجه (بشوش) سعيد قدر المستطاع. فقال لقد أرسلت في طلبك لأحذرك للمرة الأخيرة بأنني لو تصلني أي شكوى في المستقبل ضدك من أي أحد أو أي نوع من الاتهامات التي أنت متهم بها إلى حد الآن فإنني أقسم (ووضع يده على لحيته) بديني أني لن أرحمك من غضبي وإن كان ذلك يؤلمني، فاذهب الآن واحرص على تحاشي العقوبات التي كنت تستحقها، واعلم إنتيلم أفعل إلى حد الآن إلا تهديدك. فصن كرمي وصداقتي التي لمست دلائلها مرارا وصدق أنها لم تتضاءل إلى الآن، ولكن اعلم أن أي خطأ يمكن أن يمحو كل شيء وسيتبع ذلك ما يعليه علي غضبي.

لم أكن أستطيع الإجابة بشيء ولم يسمح لي بذلك، فانسحبت فرحا لانتهاء كل شيء على هذه الصفة وأكبر فرحي كان لأني لم أفقد صداقته. وفي الغد أسرعت إلى حاميتي لأشكرها ووعدتها بأني لن أقترف أي حماقة في المستقبل، وتمسكت بوعدي لها دون أن أستطيع التخلص من وصيفتي التي خدمتني كثيرا في هذه الحادثة.

لم يكن هذا سيغير من سلوكي لولا الحدث (المثل) الذي وقع مباشرة بعد التهديدات التي وجهت لي، حيث أن زوجة أحد رجال المجلس وجدت مع أحد القادة، وكان رجلا مرموقا في حالة دعارة وذلك على الساعة الحادية عشر ليلا وفي غياب زوجها فأخبر الباي بذلك في حينه، وهنا ثارت ثورة السلطان الذي كان مع الأسف أسير غضبه وأمر بشنق المرأة في الحين أمام بيتها وبجلد شريكها 400 جلدة بعد تغريمه 600 سكة، ونفذ كل ذلك في نفس الدقيقة حيث لم يصل منتصف الليل حتى كانت المرأة قد ماتت والموري قد جلد والباي قد قبض الغرامة المفروضة. وتستطيع أن تصور دهشة وخيبة أمل الغائب التعس الذي - رضوخا لمعتقدات أمته الخرافية - صبر وخفف عنه، وعاد إلى المجلس بعد أيام قليلة من الحادثة.

لهذا غيرت سلوكي تماما وكرست جهدي كله في عملي ومطالعتي. وفي السنة الأخيرة التي بقيتها في البلاد قمت بكثير من الأسفار إلى مستغانم[1] لشحن البواخر التي تصل إلى هذا الميناء وبما أنها كانت تتاجر مع

[1] - مدينة صغيرة وميناء تابع لمعسكر ويبعد عنها بـ 12 فرسخ وعن وهران بـ 4 فراسخ

سيدي فإني كنت المكلف بالمحافظة على كل ما تتكون منه الشحنة[1] (السلع)، الأمر الذي جعلني أتعامل مع العديد من الفرنسيين الذين كان من السهل عليهم أن يقوموا بتهريبي معهم لو لم أكن مراقبا بأمر من الباي.

*1 – كانت الشحنة من قمح وخرطال، لأنه لم يكن الموريون يعرفون غيرها، ومن الشمع والصوف. كانت هذه هي أكبر منتجات هذا البلد وعليها يعتمد في تجارته. إذ كانت تصدر إلى العديد من الأمم. وقد كنا نشحن في بعض السنوات عشرة سفن كانت الفرنسية منها أكثر من الإنجليزية، وهذا ما يدل على كمية الحبوب التي يجنيها هذا البلد التابع لباي معسكر وكذلك بالنسبة للأصواف والشمع الذي يصنعه.

سابعا

عقبات في طريق الحرية

تابعت إذن عملي، وتمتعت دائما بصداقة سيدي وحبه وحب أعضاء مجلسه، وقد سافرت 4 مرات إلى الجزائر، مرتين مع الباي ومرتين مع الخليفة الكبير[1] إن هذه الأسفار زيادة عن فسوقي جعلتني دائم الإفلاس رغم دخلي الكبير وذلك أن الله منحني روحا رقيقة لا يمكن بها إلا أن أكون في خدمة المسيحيين المساكين الذين كانوا يأتون للتوسل. لقد كانت ثيابهم وهيئاتهم تدل على تعاستهم مما جعلني لا أصد أحدا منهم. فكانوا يأتون لملاقاتي على بعد 4 فراسخ من الجزائر كلما أتيت إليها وكان بعضهم يقدم لي ورودا وبعض الفواكه حتى أني لا أدخل إلى المدينة إلا وكل ما جمعته أتصدق به مدة سفري.

أما في الجزائر فكان الوضع أسوأ، حيث أن منزلنا لا يفرغ صباحا ومساء من المسيحيين المتوسلين. وذلك لمدة بقائنا كلها وهي 8 أياما، ولم أكن أستطيع التخلص من أي منهم إلا بعد أن أعطيه شيئا.

*1 – يذهب الباي إلى الجزائر مرة كل سنة في شهر سبتمبر ويذهب الخليفة في شهر أفريل من كل سنة، وكنت ملزما بالذهاب مع كليهما لإيصال الضرائب التي كنت مكلفا بحملها.

وقد جعلهم هذا البؤس وقحين بحيث أني إذا لم أعط أحدهم شيئا أثناء توزيع الصدقات فإنه يغمرني بأقبح شتائمه، وإذا خرجت لقضاء الصلاة أو للعشاء مع السيد القنصل الفرنسي أو الأب قارديان دي ترينيتار (Gardien des Trinitaires) (حارس الثالوث المقدس) اللذين كانا يدعوانني إليهما كلما أتيت إلى مدينتهما. يلتفون حولي ويتبعونني أينما ذهبت ومنهم من كان يجثو ليقبل قدمي.

لن أذكر قيمة الصدقات التي كنت أقدمها خلال كل سفر إلى الجزائر مخافة أن لا أصدق أنا ذلك. ومخافة ألا تصدقوا أنت كذلك إلا إذا رأيتم البؤس الذي يعيشه هؤلاء وأن تكون لكم روح طيبة (رقيقة) كروحي.

وصل خبر تمتعي بالحياة الهنيئة وبقيمة ما كنت أقدمه للمسيحيين إلى أبي وذلك عن طريق أحد العبيد المتحررين -وبما أنه كان رجلا ورعا تقيا فقد سر لذلك كثيرا وعبر لي عن ذلك في رسائله، إلا أنه كان يذكرني دائما بأن أوفر شيئا أستطيع أن أسافر به عند تحرري فأدخل إلى الوطن باعتزاز عندما أبرهن على أني لم أسئ التصرف في المداخيل الكبيرة التي كنت أتقاضاها التي كانت المدينة تعلم بها.

كانت كل هذه التوجيهات هي نفسها التي كان معظم أصدقائي يوجهونها لي إلا أنها لم تنقص من تبذيري وبقيت كما كنت. والشيء

الذي جعلني كذلك هو تصرف بعض المسيحيين الذين كنت أثق بهم معي. ومنهم واحد[1] كان يعتبر نفسه أشرف مسيحي بمعسكر. أودعت عنده 100 سكة حتى أسافر إلى الجزائر حيث يجب أن أسلمها للساعاتي الذي اتفقت معه على أن يحتفظ لي بالنقود التي أجمعها إلى أن أتحرر ولكن مع الأسف حين سألته إياها قال بأنه صرفها، هذا ما قاله، ماذا كنت أستطيع أن أفعل في ذلك الوقت؟ هل اشتكيه للباي؟ حينها سأعرض هذا الرجل -وإن كان مذنبا- إلى المشنقة أو قطع الرأس هذا من جهة، ومن جهة أخرى سأجلب لنفسي كره سيدي بسبب إخفاء هذه الأموال عنه، لذا رأيت أن الشكوى لا تجلب إلا المتاعب.

وهكذا صبرت نفسي بالقدر الذي أملك وهو 100 بستول (Pistoles) ولكن على مضض.

وهناك شخص آخر[2] طلب مني 40 سكة سلفة حتى يقوم بتجارة

---

[1] – كان رجلا كبير السن، عمل في السابق ضابطا في الجيش الملكي الفرنسي.

[2] – كان صائغا من لنجدوك وكنت أحبه كثيرا لأنه كان من مكان لا يبعد عن مسقط رأسي إلا بـ 2 أو 3 فراسخ، وكان يعرف عائلتي.

صغيرة في الأروقة (Porche)[1]. ونظرا لكوني أعتقد أنه يستطيع ردها بسرعة أعرته ما يريد.

لكنه كان لئيما إذ رحل دون أن يرجع لي شيئا، فهو قد حرر في الوقت الذي كنت غائبا مع سيدي الذي كان في إحدى غزواته التي سبق أن تكلمت عنها وكان علي أن أصبر نفسي على هذه الخسارة أيضا التي كانت بالإضافة إلى كثيرات غيرها كانت السبب التي جعلتني مبذرا، فهي خيبة الأمل أكثر منه كرما.

لقد كان الرجلان اللذان أتردد عليهما في الجزائر لا يجهلان شيئا عن سلوكي وتبذيري، وكانا يلومانني على ذلك وعلى عدم تقديري لوضعي غير المستقر وعدم سعيي رغم التسهيلات التي منحتني إياها السماء لكسر قيودي والعودة إلى أهلي الذين من المفروض أني بقربهما منذ زمن طويل. كانا على حق وكنت أقدر جيدا ذلك، إلا أنني لم أكن أتصور أني أستطيع فدية نفسي نظرا للمعارضة الأكيدة من سيدي.

---

*1 – كان بعض العبيد يقومون بصنع الخمر من الزبيب وذلك في الرواق (Porche) بمعسكر ويبيعونه مع اللحم والخبز، ونظرا لعدم اعتبار أي شيء في هذا البلد حقير فإن هذا الرجل قرر رغم انتمائه إلى عائلة شريفة أن يعمل بهذه التجارة ليوفر لنفسه بعض ما يخفف من قيوده.

وأخبرت الرجلين بما يخالج نفسي فأجابني القنصل أعطني 2000 جنيها وأعدك بشرفي بأنك ستحرر رغم معارضة هذا السلطان[1]. لم يكن يصعب علي جمع هذا المبلغ وأكثر في مدة قصيرة لذا أجبته بأني سأحضره له في السنة القادمة عندما آتي مع سيدي 200 سكة. فقال إذا كان الأمر كذلك فإني بمجرد حصولي على المبلغ سأكتب رسالة وكأنها أتت من الوزير الذي يأمرني بافتدائك بسرعة وعلى هذا السبيل أقوم بمساعي لا يمكن أن تخيب، لإبعادك عن بلد ستضيع فيه في الأخير لا محالة.

لا يتوقف تحرري إذن إلا على جمع مقدار فديتي، وللوصول إلى ذلك كان لابد من تغيير سلوكي الذي اتبعته حتى ذلك الحين. كان ذلك صعبا لكنه ضروري لتغيير مصيري وكل ما كنت أخشاه هو أن لا يطول تنفيذي لقراري هذا مما سيجعلني أتعس إنسان، هذا زيادة على الحماقات التي ارتكبتها وسببت لي تلك التهديدات التي وجهت لي من طرف سيدي التي يؤكد لي لو أني أقع في الخطأ مرة أخرى سأخسر صداقة سيدي نهائيا وسأدفع به إلى الانفعال الشديد الذي يلازمه.

كان سلوك الباي اتجاهي في السنة الأخيرة التي قضيتها معه ينم عن علمه بمشروع الجزائر، حيث أنه تغير كثيرا فهو لم يرني طيبة كهذه أبدا

---

*1 – تكلف فدائي بـ 3000 جنيها مما جعل القنصل يكمل الباقي، طبقا للقرار الصادر عن الوزير والذي ينص على مساعدة أبناء أمته الذين يملكون جزءا من فديتهم.

فلم يكن يمضي يوم إلا وحدثني عن رغبته في تتريكي وكان يضيف إلى اقتراحاته وعودا كبيرة فيؤكد لي أنه يريد أن يؤمن لي مصيرا أسعد من الذي رأيته إلى حد الآن، أو أراه في أي بلد آخر. وكنت أتخلص من اقتراحاته بقدر ما استطعت محاولا إزالة كل أمل من قلبه في ذلك حتى لا يعود للتفكير به مرة أخرى، فأشكره على كل ما فعله معي وما يريد أن يفعله وأرجوه أن يتيقن من أسفي لعدم استطاعتي تلبية رغبته التي كانت ضد واجباتي الأولى وضد حبي لأهلي ولوطني.

كانت أجوبتي لا تخيب أمله بل كان يثير الحديث عن ذلك في كل مناسبة مقترنا بالوعود والرجاء وأحيانا بالتهديد إذ كان يقول لي: هل تفكر في العودة إلى وطنك؟ إنني وحدي الذي أقرر عودتك، إنك ملكي ولن يستطيع أحد أن يغير مصيرك إلا بموافقتي، هذا إذا وافقت يوما. أتريد أن تبقى مسيحيا دائما وبذلك عدوا للشعب الذي تعيش معه منذ زمن بعيد؟ أتريد أن تكون خائنا دائما للقانون الذي يدعوك للدخول فيه لإبعادك عن الفساد الذي تغرق فيه ديانتك؟ صدقني: كن أخا لنا ولا تجعلني أخجل من صداقة رجل عقيدته عكس عقيدتنا. وأضاف: أقسم لك أنك لن تندم أبدا إذا لبيت مطالبي، سأغمرك بالفضائل، سأعطيك منزلا جميلا بمجرد إسلامك. سأعطيك فتاتين من السرايا لا تزيد أكبرهما عن 13 سنة (فعلا لقد عرفتهما إذ كان وجهيهما يحمران لمجرد رؤيتي

حيث أنهما تعلمان بكونهما ثمن بعدي عن أسمى وواجباتي). سأعطيك حصانين جميلين وأحسن الأسلحة وسأضمن لك منصبا ما دمت حيا. سأجعلك من أبنائي وأخصك بنفس الحنان. أكرر لك صدقني لا تعارض أبدا ما يصنع سعادتك ويغمرني بالرضاء. واعمل على أن لا يجبرني عنادك لاستعمال طرق أخرى غير اللين، فإني إذا استعملت القوة معك ووافقت بعدها ستصبح مكروها ومحتقرا في أعيننا جميعا والعكس إذا كانت الموافقة إرادية ونابعة من أعماقك ستجعلك عزيزا لدى الجميع وخاصة لدى سيدك.

كيف أجيب أمام كل هذه الفضائل؟ كنت مرتبكا إلى حد أني لم أستطع الكلام. لم يغريني شيء مما عرض علي الباي، بل كنت فقط خائفا من أن تجلب له إجابتي بالرفض الغضب فيستعمل معي الطرق التي هددني بها تقريبا، ولم يبق أمامي حل وسط. كان لابد من الإجابة وبالتالي معارضة كل ما كنت أسمعه.

وكان أملي الوحيد هو ما قررته مع القنصل بالجزائر فهو المنقذ الوحيد بالنسبة لي. ولاعتقادي الراسخ في نجاح المشروع، فكرت في أنني أترك لسيدي بعض الأمل للتمكن من التخلص منه ولو مؤقتا.

هكذا أجبته بأني كنت فخورا ومندهشا لما يريد فعله ليوصل فضائله إلى أقصى درجتها، وليعلم أني أقدر ذلك تماما إلا أني -وهذا قبح مني- لا

أستطيع الإجابة عنها بسرعة، وأني آمل في أن يتكرم بقبول رفضي الذي ربما لا يكون إلا مؤقتا وأن يترك لي بعض الوقت للتعود أكثر فأكثر على اللغة والعادات المحلية. وقد استطعت في الأخير أن أوصله إلى ما أريد، الشيء الذي لا أستطيع فعله اليوم.

فعلا أوقفت هذه الإجابة اقتراحات سيدي، إلا أنه لم يكن مقتنعا كما كان ينتظر، ومن ذلك الحين لم يفتح الموضوع ولم أعطه وعودا أخرى حتى جاء اليوم الذي كشف فيه القناع وعلم بقرب فديتي.

من ناحية أخرى لم تكن محاولات نساء السرايا أقل من محاولات سيدي الذي لا بد أن يكون قد أخبر إحداهن بأنه سيجعلني أكفر بديني (يجعلني مسلما) فانتشر الخبر في أنحاء السرايا بحيث كلما دخلت إليهن يبدين فرحهن وخاصة السلطانة (منقذتي) التي كانت تعتبر ذلك نعمة يريدها الباي لي، لذلك كان علي أن أفرح بدلا من أن أعارض. ومن هنا بدأن في النظر إلي كمسلم وأخذن يناديني باسم مصطفى. لكن بمجرد سماعهن برفضي المؤقت اندهشن وسعين في كل مناسبة لإقناعي بأحسن الطرق.

وقد كادت منقذتي مرارا أن تنتصر علي إذ أنها كانت تستعمل معي مختلف العبارات المقنعة التي لا يمكن الصمود أمامها. إلى حد أنني لاحظت مرة أنها تحمل مقصا تريد قص شعري فأثارتني هذه الحركة رغم علمي

بأنها نابعة عن حب وصداقة، ومن ذلك اليوم قررت أن أبتعد عنها رغم سعادتي بجانبها وأبتعد عن السرايا كلها خوفا من الإغراءات.

انشغلت إذن بما يبعد عني هذه الاقتراحات من الجميع، وبجمع المبلغ المتفق عليه مع القنصل، وآخر مماثل -إذا استطعت ذلك بشرف- للسفر، فتقشفت إلى أن استطعت في الأخير أن أجمع 200 تقريبا، وذلك قبل انطلاقنا إلى الجزائر. لم أعد أثق بأي شخص لذا صنعت لنفسي حزاما من القماش الهولندي أخفي به دراهمي، وكان لا يفارقني أبدا. هنا أرسلت إلى الجزائر أخبر القنصل بأن المبلغ المتفق عليه قد جهز وأنه يستطيع أن يبدأ مسعاه لما جمع من أجله، ولم أحدثه عن المبلغ الزائد على قدر الفدية.

وجاء شهر سبتمبر ومعه رحيلنا إلى الجزائر. كنت سعيدا جدا لأني سأحمل المبلغ الذي سيبعدني عن البلد الذي كرهته بسبب إلحاح الباي لإخراجي عن ديني، وأصبحت لا أشك في أن هذا السفر سيكون الأخير مع سيدي.

أسلمت نفسي للسعادة وكأني في ليلة عودتي إلى وطني الحبيب والارتماء في أحضان أبي وأمي اللذين حرمت من حنانهما الذي لا يقدر. منذ زمن بعيد كل هذا كنت أحس به في ذلك اليوم فأسعد بالتفكير فيه وخاصة عندما وصلتني رسالة تثبت صدق نوايا القنصل الذي بدأ يقوم بالمساعي التي وعدني بها. والتي أتممت سعادتي.

خيمنا قريبا من الجزائر التي كان يجب أن ندخلها في اليوم التـــالي، وهنا جاء أحد المارقين من المدينة ووقف أمام سيدي ليقدم له امتنانه[1] فقد أرسله القنصل لا محالة لأنه كان يعرفه يحمل الرسالة[2] إلى التي أوصـــلها فعلا بمجرد وصوله إلى الخيمة بعد أن قام بواجبه نحو البـــاي الـــذي أراد معرفة ما تحويه هذه الرسالة، وهذا ما لم أكن أعارضه بل كان ما أريـــده وعندما عرف سيدي محتوى الرسالة ولاحظ الفرح الذي لم أكن أستطيع إخفاءه ضحك وقال لي: ماذا يستطيع قنصلك ووزيرك أن يفعـــلا بمـــا يخصني وحدي، من الأفضل لهما أن لا يقحما أنفسهما في مشروع لـــن ينجحا فيه أبدا، لا تكن مغفلا وتصدق هذا الوهم لـــن ترحـــل أبـــدا، ستصبح تركيا بمجرد رجوعنا إلى المعسكر وسأرغمك على ذلك بأقصى قوة.

لم أعد أخشى شيئا بعد ما جاء في الرسالة فأجبته بجرأة أنه لا يوجد شيء يستطيع منعه مادامت فديتي قد وصلت وقلـــت لـــه: إني فرنســـي وبمجرد وصول فدية العبيد التابعين لهذه الأمة لا يحق لأحد أن يعارضـــها

*1 – كان هذا المارق ذا مكانة مرموقة إذ استطاع أن يحصل على منصب راق أغناه (جعله غنيا).

*2 – كانت هذه الرسالة تخبرني بالأوامر التي تلقاها من الوزير لإعادة شرائي (فدائي) وكانت مطابقة لما اتفقنا عليه، ولذلك كلف المارق لأنه يعلم جيدا أنه سيقول ذلك للداي.

وإلا فإنه يخل بالاتفاق المبرم بين حكـــومتكم ووطـــني. أمـــا بالنســـبة للتهديدات التي كنت تهددني بها لإجباري على التخلي عن ديني، فإني لا أعتقد أنك تستطيع تنفيذها نظرا لمركزك والصداقة والكرم اللذان غمرتني بهما دائما الشيء الذي لا أصدق أنه مات سريعا في قلب كريم كقلبك، كما أنني أفضل الموت على أن أتخلى عن معتقداتي.

ثامنا

تيدنا يعود إلى بلده

أخيرا وصلنا إلى الجزائر في موكب بهيج[1]. وبينما ذهب سيدي إلى الداي مرفوقا بالآغا[2]. اتجهت أنا بالقافلة إلى المترل المخصص لنا. وبعد التفريغ أرسلت إليه مع كل الخدم ما يتصل بالضريبة بما فيها النقود.

*1 – عند دخولنا المدينة كان الغلمان يسيرون أمام الباي وينثرون الدراهم التي تملأ جيوبهم أمامهم ليلتقطها الجمهور.

*2 – الآغا (lago) هو الذي يتكلف بأوطان مختلف البايات فكان يأتي دائما ليتقدمهم في الدخول إلى الداي ويخرجون معه بعد تسليم الضريبة، وكانت ضريبة باي معسكر تقدر بـ 333.000 جنيها، وحصانا للداي، 25 بغلا، 12 عبدا أسودا من الجنسين، 25 قنطارا من الشمع و50 جلد تيس مليئة بالسمن و25 زيرا (جرة) كبيرة من العسل و25 لحافا من الصوف الأحمر و50 زوجا من الأحذية (خف) الحمراء و50 لباسا من الصوف للعبيد المسجونين زيادة على ما ذكرت كان الباي وكذلك الخليفة يذهبان كل صباح مدة 8 أيام التي يقضيها في العاصمة –إلى الداي لتقبيل يده فيحملان له 2000 جنيها وكان عليهما أن يوزعا الهدايا السنوية على كل من ينتمي إلى بيته وكان هذا مقررا كتابيا ويصل إلى مبلغ كبير– ولن أوضح كل ما يعطيانه إلى كبار رجالات البلاد وكل ما أستطيع قوله –وهذا حسب معرفتي– إن ما كانوا يوزعونه عليهم من أموال يفوق في بعض الأحيان مقدار الضريبة. وكان من الممكن أن يفقد الباي رأسه عند تسليم هذه الضريبة هذا إذا ما انتقدها أحد ولم يتكرم الداي بقبولها. إلا أننا لم نعد نلاحظ هذا مثلما كان في السابق.

جاء أخيرا من عند الداي فقبلت يده كما فعل جميع أعضاء مجلسه وذلك لتهنئته على نجاحه من الدخول إلى الوصي (Régent).

لقد أظهر لي خلال مدة بقائنا هذه أقصى علامات الطيبة والصداقة وقد أدهشني هذا كثيرا إلا أنني عرفت في الأخير سببه.

كان شغلي كثيرا في هذه الأيام الأربعة الأولى، إذ لم يتركني توزيع الهدايا أتمتع بأي لحظة منها. ففي اليوم الثالث بينما كنت منهمكا في العمل داخل المخزن حمل خادم للباي رقعتين مكتوبتين بالفرنسية ولم يستطع أحد قراءتهما فاستدعيت لذلك وبعد أن قرأتهما قلت له بأن إحداهما تخص أحد العبيد المسيحيين كان بمعسكر والأخرى تخصني. وهما ينصان على أن فديتنا قد وصلت وأننا يجب أن نرحل.

لم يقل شيئا بل أخذ النسخة الخاصة بي ومزقها، واحتفظ بالأخرى، لم يعجبني ذلك إلا أني كنت أعلم أن ذلك لن يؤثر في شيء.

كنت قد سلمت للساعاتي[1] الذي أعرفه 2000 جنيها المطلوبة لتسليمها إلى السيد القنصل الذي قام بمساعي كبيرة لدى الداي مما جعله يفتح الموضوع للباي بمجرد حضوره إليه في صباح الغد، إذ قال له: لقد أرسلت إليك اسمين لمسيحيين هما تحت سلطتك، لقد جاءت فديتهما

*1- يقصد به من دون شك صانع ساعات الداي ويدعى فور (Faure) يقطن في الجزائر منذ عشرين عاما ويتمتع بشهرة كبيرة.

ولابد من إرسالهما إلي، وقد أخبرني القنصل بأنه سيدفع لك المبلغ فديتهما متى شئت وكان سيدي يتوقع ما قاله الداي فأجابه –حسب ما علمت– أنه بالنسبة لأحدهما لا مانع عنده وأنه سيرسله إليه حينا أما بالنسبة للآخر فقد ترجاه أن لا يضغط عليه لتسليمه لأنه لا يستطيع فراقه حيث وثق به وسلمه زمام أمر بيته ومعسكره وأنه إذا أرغمه على ذلك فإنه لن يجد أبدا من يعوضه[1]. فقال له الداي: إننا لا نستطيع الاحتفاظ بالأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الأمة. أما إذا كان الأمر هكذا فإني أنسحب من القضية وعليك أن تتفاوض بنفسك مع القنصل لحل هذا المشكل.

كان الباي يخفي عني كل ما يقال له عن قضيتي ويغمرني بصداقة كبيرة. إلا أن الأخبار كانت تصلني من الذي تهمه مصالحي عن مساعيه وعن قلة نجاحها مما جعلني أعتقد في فشل مشروعنا وخاصة عندما انسحب الداي من القضية. وقد كان القنصل يعتمد على كلمته. لم يتخل القنصل عن القضية وزاد تصلب سيدي.

هكذا إذن كنت منهوك القوى بسبب الأعمال الكثيرة والصعوبات التي أراها تعترض إعادة شرائي. إلا أنني تذكرت طريقة كنت أرى أنها لن تخيب أبدا إذا لم تتعرض لها صداقة سيدي. أو بالأحرى حاجته لخدماتي.

---

*1 – ربما يقال إني أريد مدح نفسي بما أقول، ولكن هذا خطأ و لم أقل إلا ما حصل فعلا.

كتبت إلى أحد أصدقائي وكان عبدا وخزندار للخزناجي الذي كان يعتبر أكبر شخصية في البلاد بعد الداي. وكان سيدي نفسه مرؤوسه فكان يقبل يده كلما قابله. كتبت لأخبره بأن فديتي قد وصلت وأن مساعي القنصل لم تؤثر على الباي –سيدي– للموافقة على رحيلي وأن هذا هو ما جعلني أترجاه ليكلم سيده ليطلب من الباي إبقائي بالعاصمة لأنه في حاجة إلي وبعد ذلك يسلمني إلى القنصل ويستلم منه مبلغ 300 سكة[1]. وكنت مقتنعا بأن هذا كاف لحل مشكلتي نظرا لما للخزناجي من نفوذ على الباي الذي لا يستطيع رد أي طلب له[2]. ونظرا اهتمام الخزناجي بذلك.

استطاع صديقي الذي كان يتمتع بحب سيده أن يقنعه بسرعة وقد عبر لي عن سروره لذلك في رسالة يخبرني بها بأن القضية قد انتهت وأنه يتمنى رؤيتي في المساء ببيته وينصحني بأن أودع أثمن ما لدي في يد أمينة قبل أن آتي إليه وذلك خوفا من أن يجعل الغيظ سيدي فينتقم مني ويجردني من كل شيء. فغمرتني فرحة كبرى وشعرت وكأني حر الآن فأرسلت

---

*1 – كان هذا الصديق من قرساي، وقد حرر بعدي بسنة واحدة، التقينا في باريس وتعانقنا كثيرا وبارتياح شديد.

*2 – إننا لا نجرأ على القيام بمثل هذه الاقتراحات بالنسبة لأمير مسيحي. أما في هذا البلد لا شيء يجرح الإحساس.

ساعتي وأثمن ما أملك إلى الساعاتي. لكن فرحتي لم تدم حيث تلقيت رسالة أخرى من صديقي يقول بأنه رأى سيدي يقبل رجلي الخزناجي[1] قائلا بأنه سيده وسيد كل ما يملك إلا أنه يرجوه أن يترك له العبد الذي لا يمكن أن يكون له ضروريا بدرجة ضرورته له هو ولمعسكره. وكان يمكن للخزناجي أن يتمسك برأيه وعندها لا يبقى أمام الباي إلا الطاعة لكنه ضحى بأغلى ما أتيح له في حياته. وأنهى صديقي رسالته بقوله بأن الخزناجي لم يرد إرغام سيدي على شيء سيسبب له هذا الألم كله ولقد استطاع هذا الأخير أن ينتصر ويفشل كامل خطتنا، وأضاف صديقي بأنه آسف لعدم نجاحه في شيء كان يظنه يسيرا.

ها أنا إذن أعود مرة أخرى إلى يأسي، وكذلك كان مُدافعي قد أخبرني بأن سيدي قال له بأنه سيضحي بنفس مبلغ فديتي على أن يتخلى عني وهذا أزال كل أمل في النجاح. وأرسلت له أخبره بأن أحد المسيحيين نصحني بأن أعتصم بمسجد أحد المقدسين المسلمين حيث لن يستطيع أحد إخراجي فأجابني بأن أعمل كل ما أراه مفيدا وأنه سيساعدني بقدر استطاعته.

*1 - كثيرا ما كان يطلب منه بعض صغار عبيده السود، أو بالأحرى يرسل لإحضارهم دون علمه ولا يعلمه بذلك إلا بعد الحصول عليهم.

كانت الليلة ليلة سفرنا من الجزائر، كل شيء كان جاهزا لذلك. حضرت الصناديق وكل شيء وكأني مقرر أن أرجع إلى معسكر. لم يكلمني سيدي عن أي شيء يخص فديتي وتصرفت بالمثل. لقد قمت بمتاع وكان يقوم بهدمها بصمت وانتصر.

أخيرا جاء المساء فوضعت بهدوء كل المفاتيح التي كنت أحملها تحت مخدة وتبعت المسيحي الذي قادني إلى المسجد[1] الذي كان من المفروض أن يجبر باي معسكر إلى الرجوع من دوني.

وبمجرد وصولي إلى المسجد ومعرفة سيدي لذلك ثار وأرسل إلي وكيله وآخرين لإقناعي بالخروج لكن لم أتأثر ولم يهنأ هو[2]. وكنت أرد على كل من كان يقترب مني بأني أتألم كثيرا لفراق سيدي أنا مدان له بكل الحنان الذي غمرني به مدة عبوديتي وأني آسف جدا لفقدان صداقته وعطفه. لكني لا يمكن أن أتنكر لأبي وأمي اللذان ضحيا بجمع مبلغ فديتي ويجب علي أن أذهب إليهما لمواساتهما. كما أن حبي الذي لا أزال

*1 - إنه مسجد قديسهم الوهمي المسمى سيدي الوالي وبه يكون الناس في مأمن مهما فعلوا من جرائم كبيرة. لا أحد يستطيع إخراجهم ولو كان ذلك الداي نفسه. وهذا ما أدى بكثير من الأتراك إلى المزيد من ارتكاب الجرائم. فكان المسجد مليئا دائما بهذا النوع من الناس.

*2 - قيل لي إن أحدهم قال للباي بأن يتفقد أمواله لعلي أخذت منها شيئا قبل رحيلي فقال له: لو كنت تعرف هذا المسيحي كما أعرفه لما تكلمت هذا الكلام.

أحتفظ به لهما يجعلني لا أتردد في وداع سيدي وبلد اللذين سيبقيان ذكرى عزيزةعليّ إلى الأبد.

كل هذه الموضوعية جعلتني محط أنظار واهتمام الجميع. كما جعلت الباي يلتجئ في الأخير إلى الداي ويطلب منه التدخل ظنا منه بأن الخوف سيجعلني أستسلم وأرجع – حسب رأيه – لم يتأخر هذا السلطان في إرسال شخصين مهمين لإقناعي بالخروج والعودة إلى سيدي لكني أجبتهما بنفس الإجابة التي قلتها لرسل سيدي مضيفا بأن يأسي يجعلني أعصي سلطانا بهذه القوة وهذا الاحترام وأني أتمنى أن يغفر عصياني وأن يتكرم – نظرا للإنسانية والعدل المعروف بهما– بالسعي لترحيلي وإرجاعي إلى أهلي بدلا من السعي لإرجاعي إلى سيدي. كما أني فرنسي وقد جاءت فديتي لذا فإن إبقائي بعد ذلك يعتبر إجراما في حق العدالة.

كنت عند ذلك لا أتكلم إلا العربية وقد ألهمني الله فأعطاني قوة جعلتني أتكلم هذه اللغة بسهولة لم أعهدها من قبل مما أدهش الحاضرين كلهم.

وفي حين ذهابهم لإخبار الداي بإجابتي نصحني أحد الأتراك الذين كانوا بجانبي والذي اهتموا بأمري قائلا بأنه رغم عدم استطاعة الداي إخراجي من المسجد فإنه باستطاعته أن يجد لك موتا محققا هنا وذلك بمنع تمويلي، وختم قوله بأنه شاهد أمثلة من هذا النوع وأنه ينصحني بأن

أخرج من المسجد إذا ما أرسل في طلبي مرة أخرى وبأني لن أخشى شيئا إذا خرجت من هذا المكان الذي يحميني من عقوبات سيدي.

أمام نصيحة هذا الغريب الذي أظهر لي كل الطيبة ندمت على عدم خروجي مع رسل الداي. وبينما كنت أفكر رجع الرسل ليعلموني بأمر سيدهم بإخراجي من المسجد وأني لا يجب أن أخشى شيئا، فلم أعرض وذهبت معهم وكلي أمل في أن يعمل على تحريري بتأثيره على باي معسكر.

هكذا تقدمت إلى حاكم الجزائر[1]، ولست أدري لماذا كنت أرتعش؟ أكان هذا من شدة الخوف أم من كثرة الاحترام؟ وقد كانت دهشتي كبيرة عندما لاحظت الطيبة منه بدل التوبيخ والتهديد اللذان كنت أنتظرهما. وقال: لماذا اعتصمت بالمسجد وتركت سيدك في وقت هو في أشد الحاجة إليك؟ فكانت إجابتي للسلطان بعد أن قبلت قدميه مطابقة لما قلته مرتين التي لم تكن إلا الحق وقد فرحت لكونها لم تغضبه حيث قال لي: ارجع إلى سيدك أنه بحاجة إليك في سفره وأعدك (وهو يضع يده على جبينه) بأنك ستعود إلى هنا قبل خمسة عشر يوما وستغتنم

---

*1 – دهشت لبساطة مجلسه ولباسه، حيث لم نكن نرى به ذهبا منتشرا مثلما نراه عند أمثاله. كان رجلا في 70 من عمره تقريبا، له لحية بيضاء ناصعة زادته وقارا وبهاء. كان شريفا أي أنه من سلالة محمد. لم تكن عنده سرايا و لم يرد أبدا الزواج.

فرصة وجود الباخرة الفرنسية التي ستبحر قريبا لترحل على متنها. تستطيع أن تعتمد على كلمتي، اطمئن واعمل على إسعاد وإرضاء سيد يستحق كل ذلك لما يكنه لك من صداقة قد لمست دليلها في اعتراضه لرحيلك عنه. وختم كلامه بإصدار أمره إلى الذين سيوصلونني إلى سيدي بأن يحذروا الباي من سوء معاملتي.

كان الوقت ليلا عندما وصلنا إلى الباي تقدمت إليه فقبلت يده ووقفت أمامه حتى انصرف الذين رافقوني وطرد هو من كان معه فلم يبق معنا غير الغلمان. وهنا كنت أنتظر لومه وتوبيخه على ما فعلت معه وكنت أقول في نفسي أنني أستحق كل ما يفعله. لكن هل يصدق هذا؟ لم يكن أي شيء من ذلك مما أثار دهشتي ودهشة الغلمان. إذ أنه رجع لي المفاتيح قائلا اذهب لإتمام التحضيرات للسفر غدا.

أوقعني هذا الصمت الذي أتى بعد غليان في حيرة كبيرة إذ كان يخيفني من نهاية مشئومة التي لا يمكن أن تحصل إلا بعد البعد عن الجزائر.

كل هذا لم يحصل ولم يحدثني سيدي عن أي موضوع يخص فديتي أو هروبي وبقي كذلك حتى لحظة فراقنا.

بعد يومين من خروجنا من الجزائر أرسل إلي السيد القنصل رسالة يخبرني فيها بأن الداي أرسل إلى الخليفة بمعسكر يطلب منه وبسرعة إرسال الفرنسي الذي بعث باسمه له. وبما أننا كنا نسير ببطء فإنه لابد أن

ينزل عندنا وأرحل معه حسب الأمر الذي وصل سيدي بأنه يطلق سراحي بمجرد وصول هذا المسيحي إلينا، وفي الأخير تمنى أن يراني في الجزائر بعد ثمانية أيام.

لقد أسرتني هذه الرسالة كثيرا وتيقنت بعدها أن صمت سيدي لم يكن إلا نتيجة للألم الذي سببه له فراقي الذي كان يعلم أنه قريب.

بعد مسيرة تسعة أيام[1] وصلنا إلى سهل مليانة حيث كان يجب أن نرتاح، فعسكرنا عند سفح الجبل الذي يحمل على قمته المدينة التي تحمل اسمها[2] هذا السهل، وهنا قدر لي أن أفارق سيدي وأن أرى الألم الذي سببه له فراقي جليا. ففي صباح الغد وعلى الساعة الرابعة تقريبا أتى قهواجي الباي ليوقظني قائلا إن اثنين من الموريين قدما من معسكر ومعهما مسيحي فرنسي. قال له إني سأذهب معه إلى الجزائر لأن فديتنا قد وصلت، فأسرعت إليهم ولم يبق عندي أي شك في أن الفرنسي المقصود هو أنا فعانقته بسعادة.

*1 - كنا نسير قليلا من النهار، وكما قلت سابقا فإننا لا نسير أكثر من ساعتين أو ثلاث، وذلك في الصباح الباكر.

*2 - لقد كان الباي في السابق حاكما لهذه المدينة وكانت له أخت متزوجة بها. بعد أن عسكرنا ذهبنا إليها للتسلية وقد متعنا حاكمها كثيرا مما جعل سيدي يهديه حصانا وبندقية ومسدسين، وقد تكلفت هذه الهدية بـ 10 سكات.

كان سيدي نائما لذا أدخلتهم إلى خيمتي وأحضرت لهم ما عندي من لذيذ الفطور، وأثناء ذلك استيقظ سيدي وبعد قيامه بالصلاة وفتح خيمته أخبرت القادمين فذهبنا إليه وسلما له رسالة الخليفة. ولسماع ما بالرسالة اختبأت وراء الصناديق حيث كان يجلس الكتاب فسمعت يقول إنه أرسل إليه عبدا مسيحيا بأمر من الداي على أن يرسله مع واحد من عبيده إلى الجزائر لأنهما افتديا ويجب أن يرحلا فغمرتني فرحة كبرى وتيقنت أنه لم يبق أمام الباي إلا تسليمي. أما بالنسبة له فإنه لم يكن فرحا أبدا[1]. ولم يعبر عن ألمه إلا بعد العشاء حيث أمر بخروج أعضاء مجلسه ووجه لي هذا الحديث: ها أنت الآن في غمرة فرحك، ستفارق أخيرا سيدا وبلدا حقيرين رغم الإحساس الذي غمراك به، تذكر أن الله لن يرحمك أبدا لقد تنكرت لأكبر جميل، في حين كنت أعتقد أنك رقيق وحساس فتحس بكل ما أفعله معك. وأن هذا الإحساس سيجعلك تلبي رغبتي في أن أكلف بصنع سعادتك، لقد أخطأت، أو على الأصح لقد خدعتني بسلوك كنت أنتظر منه عكس ما فعلت اليوم. بما أن صداقتي وطيبتي لم تؤثر في نفسك فاذهب وتمتع باليأس الذي أغرقتني به والذي

*1 – لقد كان ضحية غضبه 5 مساكين قبض عليهم في هذا اليوم بتهمة السرقة فأمر الباي بقطع رؤوسهم جميعا ونفذ الأمر في الحين.

كان من الواجب إخفاؤه. اذهب وعدد نقاط ضعفي في بلادك حيث أتمنى أن لا تنتظر طويلا حتى تندم لفراقي بقدر ما أتأسف أنا لذلك.

لم أجد ما أقوله أمام دلائل الألم هذه التي سببتها لسيدي، إذ رغم فرحي لتحرري شعرت بحزن لا يوصف وقدرت الصداقة والحب الذي يكنه لي الباي وحاشيته وأهل بيته وكل الحنان الذي غمرني به الجميع طوال أربع سنوات تقريبا مما جعلني أحب قيودي وأنا معهم.

وأجبته أخيرا بأني لم أقدر إلا الآن عظمه خسارتي لفراقه، وأن ألمي لذلك أعظم مما يتصور، وأنني لست متوحشا لدرجة الجحود لجميله الذي غمرني بالسعادة وأن الذي حملني على ذلك هو واجبي نحو أبي الذي ضحى من أجل فدائي، أليس من التوحش أن أتنكر له وأنا لا أزال أحتفظ له بحبي دائما. وطلبت منه أن يتصور لحظة أنه في وضع والدي وأن أحد أبنائه عبدا فما عسى أن يكون شعوره اتجاه تنكره لتضحياته.

وأضفت بأن الطيبة والفضائل التي غمرني بها والتي أراد أن يغمرني بها لن تمحي أبدا من ذاكرتي وسيبقى هو وجميع من يتصلون به أعزاء على قلبي، وأن القدر أراد أن يفرقني عنه رغم ما يسبب لي ذلك من ألم.

كل هذا لم يخفف عن الباي وكلمني بأرق الكلمات فقلت له بأنه سيجد مسيحيا يكون بنشاطي ودقتي في العمل وسيكون أحق وأجدر بالجميل، مما يجعله ينساني، فأجابني: لو حملت شمعة موقدة وبحثت في جميع

أنحاء البلاد لما وجدت مسيحيا مثلك، إنك لا تتصور الفوضى التي ستعم مصالحي، من سيسيرها كما فعلت أنت؟ اذهب ولا تقل أي شيء يزيد من هوجسي، أرجع لي المفاتيح ولا أريد أن أراك بعد الآن.

لم أستطع أن أقول شيئا للباي الذي أظهر لي أكثر فأكثر تعلقه بي وألمه لفراقي. ارجعت له المفاتيح وبعد أن قبلت ركبتيه انصرفت إلى خيمتي دون أن أستطيع حبس دموعي.

كان موعد سفرنا في الغد مما سمح لي معرفة – عن طريق الخدم – كل ما أحس به، وعبر عنه سيدي في ذلك اليوم فقد قيل لي إنه أجاب كاتبه الذي أراد أن يخفف عنه قائلا: إنك لا تقدر كم خدمني هذا المسيحي ومدى صداقتي له فكيف تريد أن لا أتأسف لفراقه؟ إنه كان يسكن قلبي كأي ولد من أبنائي وفراقه يؤلمني كفراق أي واحد منهم.

مضى النهار و لم أذهب إلى سيدي أبدا، وفي المساء ذهبت إلى جميع الخيم دون أن أترك واحدة لوداع سكانها وهنا لاحظت مدى تعلق الجميع بي من مجلس وخدم وقد قال لي هؤلاء: كيف تتركنا وكيف ستكون معاملة من يخلفك لنا؟ لن نكون سعداء تحت رئاسة غيرك، أين نجد طيبتك؟ إن الباي أخطأ عندما سمح لك بالرحيل، إننا الخاسرون، ولكن فليساعدك الله مادام هذا الذي قرر رحيلك ولا تنسى الذين يأسفون دائما لفراقك.

لقد أثر كل هذا في نفسي تأثيرا كبيرا كان يفوق حبي لوطني وأهلي.

وفي الغد استيقظ سيدي في ساعة مبكرة وأعطى أوامره لرحيلي وسلم رسالة لرفيقينا لإيصالها إلى الداي[1] وحصل أن دخلت تلقائيا إلى خيمته حيث لاحظت أنه لم يحظر شيء لسفره الذي لم يبق على موعده إلا أقل من ساعة. وبمجرد اقترابي منه سألني عما أريد فقلت: أريد أن أرتب أغراض سفرك التي لم تحظر إلى الآن. فقال: ومن تريد أن يرتبها بعد غيابك؟

وسلمني المفاتيح، فاشتغلت باهتمام متزايد وبعد الانتهاء من الترتيب وأصبح كل شيء جاهزا للرحيل أعدت له المفاتيح وشكرته مرة أخرى على كل ما فعله معي مقبلا يده فلم يقل شيئا بل دفعني بيده قائلا: تريد مفارقتي فيساعدك الله.

انسحبت من بين يديه غارقا في دموعي التي لم أستطع حبسها، وتعاظم ألمي عندما تقدمت من الغلمان لأجده لهم وداعي – لقد عشت معهم حياة سعيدة وتمتعت بحبهم الذي لم أستطع نسيانه. أما هم فكان

1 – بعد قليل أرسل لي 20 سكه تقريبا مع ترك لي كل ملابسي ومتاعي و لم يكن هذا قليل الأهمية.

الحزن بادي على وجوههم وقبلاتهم ودموعهم كانت أكبر دليل على ذلك.

هكذا كان علينا أن نفترق وأن أقول وداعا لبلد كنت به سعيدا جدا. ها أنا أخيرا في الطريق مع رفيقي وجالسين بعيدا عن مجلسي بدأت أشعر أنه لا طعم له رغم الألم الذي أحسست به خلال ذلك اليوم. فإن فرحة الحرية سيطرت علي وعلى الباريسي[1]. وأسرعنا في السير بقدر استطاعتنا. وصلنا إلى الجزائر في اليوم الثالث في ساعة مبكرة فنزلنا عند وكيل الباي الذي تكلف – بعد أن سلم للداي الرسالة التي حملها له حارسانا – بإيصالنا إلى القنصل الفرنسي.

عمتني الفرحة وعمت منقذي لنجاح مشروعنا أخيرا رغم العراقيل والصعوبات التي أفقدتنا الأمل مرات عديدة، كان سعيدا جدا عندما

1* – كان هذا المسيحي الذي حرر معي من باريس وقد أسف الباي كثيرا لفراقه لأنه كان عاملا نشيطا جدا في عمله كنجار.

تقدمت منه لأشكره على مساعيه التي كنت مدينا له بها[1] فكانت الفرحة تظهر في كل كلمة يقولها مما أكد لي جدارته بهذا المنصب[2].

لم يتأخر إبحارنا كثيرا إذا كان في يوم الغد (22 أكتوبر 1782) على متن سفينة إقليمية (Provinçal Pique) محملة بالصوف والشمع كانت متجهة إلى مرسيليا. وفي ليلة رحيلنا قمت ببيع كل متاعي لأنه لا يلزمني في فرنسا ولم أحتفظ إلا بلباس تركي لأشبع به فضول كثير من الناس.

كان ثمن ذلك كله 100 جنيها تقريبا (إذ بعتها بأسعار رخيصة) ولم أبق إلا جلبابا أحتاجه أثناء السفر الذي كان سفرا سعيدا رغم طول مدته. ولم نتعرض إلى عواصف إلا بعد دخولنا ماهون (Mahon) ومايورك (Mayorque) وهذا لم يمنع سعادتنا لرؤية أوروبا والوصول إلى مرسيليا بسلام.

كانت الصوف التي تمثل أكبر جزء من الحمولة تجبرنا للتوقف أياما وكانت 28 يوما، (15 يوما في بوميراي (Pomeray) و13 يوما في سلسلة الحجر الصحي الأربعينات التجارية التي تتكون بميناء المدينة).

1* – أستطيع القول إني مدين لهذا القنصل بحريتي لأني لولا نصائحه وإرشاداته لما فكرت أبدا أني أستطيع أن أفدي نفسي بنفسي، وقد كانت المساعي التي قام بها لتحريري دليلا على اهتمامه بمصير جميع العبيد الذين ينتمون إلى أمته.

2* – يتقاضى على هذا المنصب 1500 جنيها تدفع له من الغرفة التجارية بمرسيليا زيادة على الأجر الإضافي.

بمجرد وجودي في هذه الأربعينية كتبت إلى أهلي لأخبرهم بتحرري وكيف حصل ذلك وجاء جوابهم الذي كان يعبر عن منتهى سعادتهم. أما سعادتي فقد كانت أكبر عندما رأيت حامل الرسالة هو أخي الأصغر الذي لم يستطع الانتظار حتى أصل إليهم بل أتى إلى مرسيليا ليراني ويعانقني.

لم نستطع التمتع بإقامتنا خلال هذه الأربعينية حيث لم يكن يسمح لأي أحد أن يقترب أو يتقابل مع أعضائها. فكل الرسائل التي تصدر عنهم كانت تغطس في الخل قبل أن تصل إلى يد أخرى. كانت هذه القوانين جد قاسية لذلك اغتنمت فرصة زيارته لي كل يوم لأكلفه بحمل رسالة سلمني إياها الساعاتي لأوصلها إلى أحد أصدقائه بمرسيليا يوصيه فيها بأن يقدم لي كل ما أحتاج من خدمات وبمجرد قرائها جاء لرؤيتي وكان كله طيبة واهتماما فكلفته بأن يجد لي خياطا يستطيع أن يخيط لي لباسا بمجرد رؤيتي ودون أن يحمل مقاييسي؛ وبسرعة كان اللباس قد حضر، كما جهزني بكل ما يلزم للإبحار.

انتهت أخيرا هذه الأربعينية الطويلة التي شاهدت أثناءها غما وشوما لم أر مثلهما طوال المدة التي قضيتها في البلاد البربرية. وعلى الساعة الخامسة صباحا وضعنا أقدامنا على الأرض وكان الصديق المكلف بتقديم خدماته لي ينتظران بقلق.

هنا تفارقت مع الباريسي الذي كان بانتظاره خادم آباء دير تخليص البشر ليوصله إلى الدير.

تاسعا

القيمة التاريخية لمذكرات تيدنا

تعد مذكرات تيدنا اعترافات منه بعد أن عقّله الألم. حيث عرض فيها أخطاءه دون أن يلتمس الرأفة أو المغفرة من أحد. والمؤلف تيدنا ليس رجل أدب رغم أن رواياته تذكّر في بعض الأحيان بكتابات كبار الأدباء. فهو قد عرف مغامرات محيرة لم تترك له سوى الذكريات السيئة، ومع ذلك بقي تيدنا "برجوازيا" شجاعا نشيطا في عمله ومرتبطا دائما بدينه وبعائلته وبوطنه رغم حمية دمه التي دفعته إلى أفعال طائشة متعددة كان يدفع ثمنها باستمرار.

وتكاد تكون مذكراته الوحيدة التي تعطينا معلومات عن المنطقة الغربية من الجزائر في القرن الثامن عشر، وأنه من الغرابة بمكان لم تكن موضوع بحث معمق لحد هذا التاريخ حسب علمنا.

وتتبين قيمة هذه المذكرات فيما قدمه تيدنا من معلومات عن حياة المجتمع الجزائري في الداخل بعيدا عن الساحل، على خلاف ما هي عادة تجار الوكالة الأفريقية والرحالة الأوروبيين الذين دونوا معلومات عن المدن الساحلية فقط دون أن يمدونا بمعلومات عن الداخل. لكن تيدنا عاش فترة تزيد عن ثلاث سنوات ونصف في بايليك الغرب (معسكر) حيث شغل

هناك منصبا ساميا؛ الأمر الذي ساعده على تقديم معلومات فريدة من نوعها.

وبحكم أن تيدنا كان أسيرا وناقص التجربة لذلك لم يلتقط معلومات محددة وموسعة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للأهالي، ومع ذلك يبقى له الفضل في تعريفنا بأشخاص لم يحدد صورهم أي شاهد عيان آخر؛ سواء من الرحالة أو الأسرى، خاصة حين عرفنا بشخص محمد الكبير باي معسكر الذي أخذ وهران من الأسبانيين. لذلك فالمؤرخ الذي اكتفي لحد الآن بجمع تواريخ تافهة عن الجزائر في القرن الثامن عشر هو محظوظ لتمكنه من الاطلاع على رواية تيدنا أحد الفرنسيين الذي كان صادقا في ذكر الحقيقية الدقيقة من دون أن يشك في الأهمية التي تشكلها ذكرياته في وقتنا الحالي بعد أكثر من قرنين وعقدين من الزمن.

إن الباي محمد الكبير لم يُعرف لحد الآن سوى عن طريق كتّاب بالعربية مثل الجماني[1]. وعلى ضوء ما ورد من معلومات في مذكرات تيدنا يدفعنا الشك في نقص ما قدمه أحمد بن محمد بن علي بن سحنون

---

1 – لمزيد من المعلومات ينظر :

Gorguos (A), « Notice sur le Bey d'Oran », in. R.A. n° 2, année 1857-58, p-p. 28-46, 223-241, et, Gorguos (A), « Expédition de Mohammed El-Kebir, Bey de Mascara, dans les contrés du sud », R.A. n° 4, année 1859-60, p-p. 347-357

من معلومات، على الرغم من أنه يعد من بين المقربين للباي حين بالغ في وصف محاسن سيده. ولكن ديفونتين ذكر هو الآخر ذكاء هذا البـــاي والرقة التي كان يعامل بها العبيد المسيحيين الذين فضل أن يحيطوا به، وهو ما أكدته رواية تيدنا التي يفهم منها أن باي معسكر كان رجلا كريمـــا وعادلا وشديد العنف مع اللصوص وصارما وليس لين الجانب في حالة ما إذا حصل تعدي على الآداب الإسلامية. وهو نشيط في الحروب؛ الشيء الذي لا يمنعه من إدارة الإنتاج والتجارة. وكان تيدنا قد تأثر كثيرا بأبهة بلاط معسكر حيث تظهر الحياة سهلة. فتشرب فيها الخمور الجيدة الـــتي يبيعها العبيد تحت الأروقة. ولا تمنع محمد الكبير نفسه من شربها.

والشيء الذي يجب التأكيد عليه هو انعدام التعصب لـــدى هـــذا الباي، فقد سبق له أن زار ليفورن ومرسيليا، وعلى أساسها تمكن قلـــيلا من تعلم اللغة الفرانكية وكثيرا من الإيطالية. وهو كثير السعي في البحث عن مساعدة المسيحيين لأنه يقدر فيهم إجادتهم للتسيير الإداري. ويضيف إلينا تيدنا معلومات عن السير الجيد لجهاز البريد الذي كان يعمل بإحكام في عهد الداي، بدليل أن تيدنا تمكن من الاتصال بعائلته.

وذكر تيدنا أنه كان يشرف على تصدير الحبوب والصوف والشمع من مستغانم وهو الميناء المهم للبايلك لأن وهران كانت لا تـــزال في يـــد الأسبان. وذكر أنه في بعض السنوات كانت تصل الشحنات المصدرة إلى

عشرة مراكب فرنسية وإنكليزية. ويقول لنا فانتور دي باردي[1] إنـــه في سنة 1787 شحن من تلك المنتجات ستة وعشرون مركبا من ميناء أرزيو مما يدل على تطور كبير في الحياة الاقتصادية في بلد يتأسف فيها تيـــدنا على خراب سهولها الخصبة الشاسعة المحرومة من ري المياه.

ويؤكد تيدنا رأيا مهما يتعلق بقيمة الدنوش السنوي التي كان يقدمها باي الغرب إلى الداي. وتيدنا في هذا الرأي أقل تحديدا من فانتور داي بارادي الذي حدد قيمة هذا الدنوش ب 666.000 فرنك في العام.

وقد ذكر الشريف الزهار أن الباي عندما يأتي بالدنوش يكون مرفقا بتحف وأموال وهدايا كثيرة من الخيل العتاق والعبيد والمصوغ، والأثاث الفاخر محمية بجيش كبير من اتباعه وكبراء النجوع وقواد وأغوات راكبين الخيل ذات السروج الذهبية، وعليهم لباسهم الفاخر[2].

ويتبين من خلال هذه المذكرات أن ظاهرة القرصنة وشراء الأسرى لم تعد تشكل في فترة حكم محمد بن عثمان باشا داي الجزائر إلا ثـــروة ضعيلة لكن الدخل من الخيرات الزراعية المتطورة كان كبيرا.

1 –Venture De Paradis. Op.cit. in. R.A. année 1995

2– مذكرات محمد الشريف الزهار، تقديم أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص. 36

وقد مدح تيدنا الباي محمد الكبير على أساس أنه الشيخ الحاكم الجميل ذو اللحية البيضاء التي شبهها بالمرمر المصقول والدال على ذلك أنه تلقاه بودكبير، واشتهر بالحزم والإنصاف. إلى درجة مثلما يقول تيدنا يمكن القول إن الربع الأخير من القرن 18 يعد بداية لفترة لهضة جزائرية ولكن هيمنة القراصنة والجندية أدت إلى انتشار فوضى خطيرة. وكان باستطاعة هذه النهضة أن تنمو ذاتيا لو أن الظروف السياسية الخارجية كانت أفضل.

ومهما يكن فإن مثل هذه المذكرات تدعونا إلى طرح أسئلة كثيرة حول تاريخ الجزائر العثمانية. مثلما تساعدنا على وضع إجابات معينة عن أسئلة عالقة. مع التنبيه والتأكيد على أننا أخذنا من مذكرات تيدنا الجانب المتعلق بمغامراته في الجزائر، من دون التطرق إلى مذكراته في فرنسا وسويسرا.

عاشرا

الخاتمة

مما سبق يتبين أن مادة مصدرية هامة تحدثت عن تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، ومن بين هذه المادة مذكرات تيدنا التي قدمها مارسيل إمريت والتي تعتبر وثيقة هامة تحدثت عن الغرب الجزائري خلال أواخر القرن الثامن عشر. لأن تيدنا لم يقدم صورة عن الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري فقط بل قدم لنا صورة عن المجتمع الجزائري آنذاك وطبيعته.

فيكون تيدنا بكتابته لهذه المذكرات قد خدم المؤرخين عموما. برغم أنه تكلم عن نفسه كثيرا بإعطائنا صورة جميلة عن نفسه فهو رقيق النفس وشديد التأثر، حساس يحسن معاملة الجميع ويحبهم من دون تمييز، وأنه نشيط وكان محبا لعمله، مع هوايته للمطالعة. وممارسته لبعض المساوئ وقد أحبه كل الناس وكان أهلا لثقة الكل وخاصة الباي.. ولكن ليس ذلك مهما بل الأهم هو الحديث عن شخصية الباي محمد الكبير وعنوالجزائر. فقد أعطى الدليل للأوروبيين الذين كان يشيعون دائما أن الجزائريين متوحشون. فقد كذب قولهم بنفسه بعد أن عاش مدة طويلة بينهم. فقد وصف لنا المعاملة الحسنة التي كان يحظى بها الأسرى المسيحيين في الجزائر.

كما أنه قدم لنا الدليل على أن القرصنة التي كانت تمارسها في البحر المتوسط السفن الجزائرية كانت ضد سفن معينة وهي سفن إسبانيا التي كانت دولة معادية لأنها احتلت بعض الشواطئ الجزائرية. والاتفاق الذي أبرمته مع فرنسا دليل على ذلك.

وأمام بعض المحاسن من التي ذكرها تيدنا هناك مساوئ كان تيدنا موضوعيا في ذكرها على خلاف البعض. فقد كان أمينا في وصف الغارات التي كان يشنها باي الغرب ضد القبائل والمبالغة في فرض الضرائب عليهم وفي محاكمة اللصوص والمارقين.

كما أنه قدم لنا وصفا للباي؛ بأنه حيوي ونشيط ومتفتح غير متعصب، وأنه كان يحسن معاملة العبيد باختلاف جنسياتهم، كما أنه رقيق القلب يحب الناس ويتسم بالقوة ولكنه شديد الغضب والانفعال مما دفعه إلى ارتكاب أخطاء كبيرة ندم على ارتكابه لها فيما بعد.

فتيدنا رغم حبه وتعلقه بالباي، لم يمنعه ذلك من تقديم من الحديث عن مساوئ هذا الباي الشيء الذي لم يذكره غيره حتى من الجزائريين. فقد وصفه بالجشع يحب المال وبرغبته في كسبه بأية وسيلة وعلى حساب غيره من الناس رغم رقته مشاعره وحبه للناس ومساعدته لهم.

وبالإضافة إلى كل ذلك فقد عرفنا تيدنا بمهمة الخز ندار. وأعطانا صورة كاملة عن المحلة وطريقة تنظيم الخيام عند الإنزال، والانطلاق. كما

أنه أعطانا صورة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية وألوانها، وخاصة السهول الخصبة التي كانت تستهويه كثيرا، وجعلته يتأسف لإهمالها وخلوها من السكان وعدم استغلال الخصوبة للإنتاج.

ولعل هذا الذي دفعه إلى اقتراح حملة عسكرية تتوجه إلى الجزائر معتقدا أن فرنسا بلد متطور وبإمكانه استغلال تلك الخيرات.

ومهما يكن فإن مذكرات تيدنا قدمت لنا صورة واضحة عن أحد البايات الكبار الذين عرفتهم الإيالة الجزائرية في القرن الثامن عشر.

domestique des pères du couvent de la rédemption l'attendait aussi pour le mener au couvent.

de la sienne au moment que je remerciai de tout ce dont je lui étais redevable[1]. Sa joie éclatait à chaque parole qu'il me dit, ce qui acheva de me persuader qu'il était bien digne du poste qu'il occupait[2].

Le tems de notre embarquement ne fut pas bien éloigné puisque nous nous embarquâmes le lendemain (22 octobre 11782) sur un pinque provençal chargé de laine et de cire.

Qui allait droit à Marseille. La veille de ce départ je me défis de tous les effets que j'avais, n'en ayant aucun qui pût m'être utile en France. Je ne gardai seulement qu'un habillement complet à la turque pour satisfaire la curiosité de bien des personnes. Cette vente me fit prés de 100l. (n'ayant que des hardes de prix). Je me pourvus seulement d'une robe de chambre pour le voyage. Il fut assez heureux malgré sa durée.

Nous n'essuyâmes de mauvais tems que lorsque nous fûmes entre Mahon et Mayorque, mais qui ne nous empêcha pas d'avoir les satisfactions de revoir l'Europe et d'arriver à Marseille sans qu'il nous fût rien arrivé de funeste. La laine qui formait une partie de la cargaison de notre vaisseau nous fit faire quelques jours de quarantaine de plus. Elle fut de 28 jours, 15 à pomégay et 13 à la chaîne des quarantinaires qui est dans le port de la ville.

1- Je peux dire que je dois ma liberté à ce consul; car sans les réflexions qu'il me fit faire et les moyens qu'il me dicta. Je n'aurais jamais pensé à entreprendre de me racheter moi-même. Les démarches qu'il fit ensuite pour faire réussir le projet que nos avions formé sont une preuve de l'intérêt qu'il prend sur le sort de tous les esclaves de sa nation.

2- Cette place porte 1.500l d'appointements payés par la chambre de commerce de Marseille, et puis le casuel.

Aussitôt que je fus dans cette quarantaine, j'écrivis à mes parents pour les informer de la liberté dont je jouissais et comment j'y étais parvenu. La réponse qu'ils me firent me fut une preuve de leur joie. Mais ce qui combla la mienne fut la vue de celui qui en avait été le porteur: c'était mon frère le cadet, qui n'ayant pu attendre mon arrivée pour avoir le plaisir de m'embrasser, était venu pour le faire à Marseille.

Nous ne pûmes cependant ni l'autre avoir cette satisfaction jusqu'à la fin de la quarantaine puisqu'on ne peut toucher les quarantaines en aucune façon et que toutes les lettres qui viennent d'eux sont trempées dans le vinaigre avant qu'elles arrivent en d'autres mains. Cette loi était bien dure pour nous; cependant il fallut s'y conformer. Comme il venait me voir tous les qu'elle dura, je le chargeai de la lettre de recommandation que m'avait remis l'horloger avec qui j'étais lié à Alger pour un de ses amis de Marseille et dans laquelle il le priait de me rendre tous les services possibles et dont je pourrais avoir besoin. Cette lettre parvenue fit que la personne à laquelle était adressée vint me voir tout de suite. Je la chargeai de me faire venir un tailleur qui put. En me voyant m'habiller sans prendre mesure. Je trouvai en ce monsieur près duquel j'était recommandé tant de bontés et d'attentions que fus bientôt habillé et muni de tout ce qui m'était nécessaire pour débarquer.

Nous finimes enfin cette languissante quarantaine où j'avais plus connu d'ennui que pendant tout tems que j'avais resté en barbarie, et, à cinq heures du matin, nous mîmes pied- à- terre à l'endroit où m'attendaient. Non sans inquiétude, mon frère et celui qui était chargé de me rendre ses services. Ce fut là où je me séparai du parisien; un

l'attachement de ses domestiques. "comment (me disaient ces derniers) tu nous quittes. Et quel sera celui qui va te remplacer? Nous ne pouvons plus être heureux sous un autre. Où trouver les bontés dont tu nous comblais? Ah. Quel tort le Bey nous fait et se fait à lui-même en consentant à ton départ! C'est nous qui perdons plus que personne. Mais enfin que le ciel te conduise puisqu'il a décidé que tu nous laissasses dans la douleur. Et souviens-toi de ceux qui ne cesseront de le regretter".tout cela ne servait qu'à m'attendrir davantage. Et j'avais le coeur si serré de tout ce qu'on me disait de touchant qu'il fallut bien que l'amour que j'avais pour mes parents et pour ma patrie triomphât si je ne succombai point à tout ce qui était si séduisant.

Le lendemain mon maître se leva de très bonne heure, donna ses ordres pour mon départ et remit à ceux qui avaient conduit mon compagnon et qui devaient me conduire aussi une lettre pour le dey[1]. Il était d'une humeur inouïe. Néanmoins je hasardai d'entrer dans sa tente; ou je vis que rien ne se préparait encore pour son départ qui devait être dans moins d'une heure. Aussitôt que je m'approchai de lui, il me demanda d'un air mêlé de désespoir et de douleur qu'était-ce ce que je voulais. "Je viens (lui répondis-je) arranger les affaires pour ton départ pour lequel on n'a encore rien préparé. Eh; qui veux-tu qui les prépares (me dit-il) lorsque tu n'y es pas? Il me donna en même tems les clefs, et je travaillai avec autant d'intérêt que je le faisais il y avait deux ans. Tout préparé, chargé et prêt à partir, je fus remettre les clefs au Bey et le remerciai

1 - Un moment après; il m'envoya 20 sequins. En me faisant dire qu'il me laissait tous mes effets, ce qui n'était pas peu considérable

encore une fois, en lui baisant la main; de tous ses bienfaits. Il ne me fit d'autre réponse; en me poussant avec la main que "Tu veux me quitter. Le ciel te conduise!"

Je me retirai d'auprès de lui, versant un torrent de larmes, que je ne pouvais retenir, et m'étant approché des pages pour leur faire mes derniers adieux, je sentis et mes larmes et ma douleur augmenter. J'avais si bien vécu eux! J'avais bien gagné leur estime que je ne pouvais m'en séparer. Quant à eux, ils étaient dans un chagrin inouï. Leurs larmes et leurs embrassements qui offraient le spectacle le plus touchant m'en furent m'en furent une preuve. Il fallut néanmoins se quitter et dire adieu à un pays où j'avais été assez heureux.

Me voilà enfin en route avec mon compagnon et nos deux conducteurs, et éloigné de tous les trains d'une cour qui commençait à me devenir insipide. Néanmoins je ne pus étouffer ma douleur ni mes regrets de toute cette journée; mais celle qui lui succéda me fit livrer entièrement, avec le parisien[1]. À la joie que l'idée de notre liberté nous faisait ressentir. Nous pressions tant que nous pouvions, ce qui fit que nous arrivâmes le troisième jour à Alger et fort à bonne heure, où nous fumes descendre chez le luquil du bey, qui; après avoir été chez le Dey lui remettre la lettre dont nos conducteurs étaient chargés, nous conduit lui-même chez M. le consul de france. Quelle satisfaction pour moi et pour mon protecteur de voir à la fin que notre projet avait réussi malgré tous les obstacles et les difficultés qui pendant quelque tems nous avaient fait perdre l'espérance. Ce digne consul me donna des preuves

1- Le chrétien qui fut affranchir avec moi était parisien et fut assez regretté du Bey parce qu'il était très bon ouvrier dans son métier de menuisier.

mes sens fussent entièrement transportés de joie, je sentis une certaine peine que je ne pouvais définir. Les larmes même venaient humecter mes yeux. Je me représentais pour lors toutes l'amitié qu'avait pour moi le bey, toute sa maison et toute sa cour, tous les bienfaits que j'avais reçus et des uns et des autres et enfin toutes les douceurs dont j'avais joui pendant près de quatre ans et qui m'avaient, dans des moments, fait chérir mes fers. Je lui répondis enfin que jamais je n'avais si bien considéré la perte que je faisais en le quittant qu'en ce moment, que ma douleur était plus grande qu'il ne le pensait de falloir être rebelle à des bontés dont je me rendais si peu digne st qui ne pourraient certainement que me rendre heureux; mais qu'il s'avait les raisons qui me portaient à cet excès d'ingratitude. Que la nature et les premiers devoirs que j'avais connus me prescrivaient de répondre aux sacrifices qu'avait faits mon père pour pouvoir me racheter. Qu'il était trop juste lui-même pour ne point avouer que je serais un monstre si je lui désobéissais, vu surtout l'amour que je lui ai toujours conservé, et qu'enfin il se mit pour un moment à la place de mes parents, qu'il avait des enfants qui possédaient toute sa tendresse, que s'ils se trouvaient esclaves comme je le suis, que ne ferait-il pas pour les ramener auprès de lui, et que, si, après avoir réussi, il les voyait insensibles à ses sacrifices et au plaisir de venir se jeter dans ses bras, quels crimes ne leur attribuerait-il pas, et de quels châtiments ne les croirait-il pas dignes, et qu'ainsi ceux après dieu m'avaient donné le jour avaient pour moi la même tendresse et m'accuseraient auprès du ciel d'un crime qui me rendrait indigne de la lumière, que toutes les bontés qu'il m'avait prodiguées et voulait me prodiguer ne L'effaraient jamais de ma mémoire, que lui est tout ce qui lui est attaché me seraient toujours chers et qu'enfin le sort

avait décidé que je le quittasse malgré tout ce qu'il m'encoûtait.

Tout cela ne consola pas le bey. Il me dit tout ce qu'on peut dire de plus tendre. A quoi ayant voulu lui répondre qu'il sérail possible de trouver un chrétien aussi capable par son travail et son exactitude de s'attirer ses bontés que je l'avais fait et qui, s'en rendant plus digne, me feraient oublier; "quand j'irai (me répondit-il avec vivacité) avec une chandelle allumée à la main dans tout le pays chrétien. Je n'en trouverai jamais un comme toi. Tu ne connais pas (continua-t-il) dans quel désordre vont être bientôt mes affaires. A qui les confier qui les dirige comme toi? Va. Ne me dis plus rien qui me fasse faire encore des réflexions. Je suis assez accablé. Rends-moi les clefs que tu as et que je ne le revoie plus.

Je ne pus plus rien répliquer au bey. Qui venait encore plus que jamais de me faire connaître l'attachement qu'il avait pour moi. Sa douleur était inexprimable. Et rien ne pouvait l'en distraire. Je lui remis donc les clefs. Et après avoir embrassé ses genoux. Et remercié de tout ce qu'il avait fait pour moi, je me retirai dans ma tente, mais non verser de larmes. Je ne devais partir que le lendemain et ainsi j'eus le tems d'être instruit par les pages de tout ce qu'il répondait à eux qui tâchaient de le consoler. "Vous n'ignorez point. Disait- il à son écrivain. De quelle utilité m'était ce chrétien et l'amitié que j'ai pour lui. Et comment voulez-vous que je ne le regrette point? Il était dans mon coeur et au nombre de mes enfants, et son éloignement m'est aussi sensible que le serait celui de l'un d'eus".

La journée enfin se passe sans que j'eusse reparu devant mon maître. Le soir je fut faire mes adieux dans toutes les tentes sans en omettre aucune. Ce fut pour lors que je connus l'amitié qu'avait pour moi toute sa cour et

Il y avait neuf jours que nous marchions[1] lorsque nous arrivâmes à la plaine de Miliana, là où ou nous devions séjourner. Nous campâmes au pied de la montagne au sommet de laquelle est située la ville qui donne son nom à cette plaine[2].

C'était là que le ciel avait décidé que je devais me séparer de mon maître et qu'il devait me faire mieux connaître le déplaisir que cette séparation devait lui faire ressentir. Le lendemain que nous y fumes arrivés et environ sur les quatre heures du matin, le cafetier du Bey vint m'éveiller en me disant qu'il venait d'arriver dans sa guérison deux Maures de Mascara avec un chrétien français qui lui avait dit que je devais partir pour Alger avec lui. La rançon de tous les deux étant venue. Je me levai avec précipitation, ne doutant point que ce ne fût le français dont il avait été question et j'eus le plaisir en l'embrassant de voir que je ne me trompais point. Mon maître n'était pas encore levé. Ce qui fit que je fis entrer dans ma tente les nouveaux arrivés, où je n'épargnai rien de ce que j'avais en mon pouvoir pour les régaler; et pendant qu'ils étaient à déjeuner, il se leva enfin. Aussitôt qu'il eût fait sa prière et qu'on eût ouvert sa tente, j'en avertis les deux conducteurs de celui qui devait être mon compagnon de voyage, lesquels vinrent remettre à ce sultan la lettre que le calif

1 - On fait de petites journées, comme je l'ai déjà dit: on ne marche pas plus de deux ou trois heures et de grand matin.

2 - Le Bey avait été kaid de cette ville et y avait une sœur mariée. Sitôt que nous fûmes campés en cette plaine, nous y fumes faire une partie de plaisir. Ou nous fume très bien régalés par le kaïd. Ce qui obligea le Bey de lui faire présent d'un cheval. Un fusil et deux pistolets. Ce présent me valut les sequins.

leur avait remis. Pour entendre la lecture de cette lettre je me collai derrière les coffres au devant desquels les écrivains étaient assis et j'entendis qu'elle marquait qu'il lui envoyait un chrétien français d'ordre du Dey afin qu'il l'envoyât avec un des siens à Alger où il devait s'embarquer, ayant été racheté. Cette lettre combla la joie que j'avais ressentie à la vue du chrétien, ne doutant plus qu'il était impossible au Bey de me retenir davantage. Quand à lui, il n'était pas trop content, sans cependant le faire connaître[1]. Il ne manifesta sa douleur qu'à la sortie du dîner, qu'ayant renvoyé toute sa cour, il me tint ce langage: Eh bien, (me dit-il) te voilà au comble de tes désirs! Tu vas quitter un maître et un pays qui t'est odieux, malgré les bienfaits dont on t'a comblé! Souviens-toi que le ciel ne te bénira jamais. Tu te rends coupable de la plus grande ingratitude, pendant que je te croyais sensible à tout ce que je faisais pour toi et que j'espérais même de cette sensibilité que tu aurais répondu aux vues qui ne cessaient de m'occuper pour faire ton bonheur. Je me suis trompé ou, pour mieux dire, tu m'as trompé par une conduite qui me faisait attendre le contraire de ce qu'il faut que je consente aujourd'hui. Puisque mon amitié ni mes bontés n'ont pu rien gagner sur ton esprit, pars. Jouis du désespoir où tu me vois plongé et que j'aurai dû te cacher. Va conter mes faiblesses dans ton pays, où tu ne tarderas pas longtemps, j'espère, à t'autant repentir de m'avoir quitté que je pourrai te regretter '. Je ne savais quoi dire ni répondre à tant de preuves de l'excès de douleurs de mon maître, et, quoique

1 - Cinq malheureux furent victimes de sa mauvaise humeur. On le lui amena ce jour–là, étant accusés d'avoir volé. Le Bey ordonna de leur trancher la tête à tous les 5, ce qui fut fait dans la minute..

ne m'y opposai point, étant bien charmé de parler avec celui que j'espérais toucher et qui pouvait seul anéantir toutes les oppositions du Bey de Mascara.

Je fus donc conduit devant le Régent d'Alger[1], et, soit la crainte ou le respect, je l'approchai en tremblant; mais quel fut mon étonnement lorsqu'au lieu des reproches et des menaces que j'attendais en recevoir, je ne vis en lui que bontés. ' Pourquoi as-tu gagné la franchise (me dit-il) et as-tu ainsi laissé ton maître dans un moment où tu lui es si nécessaire. ' La réponse que je fis à ce sultan. Après lui avoir baisé les pieds, fut conforme à ce que j'avais répondu deux fois, qui n'avais rien que de juste, et j'eus la satisfaction de voir, par ce qu'il continua de me dire, qu'elle ne lui avait point déplu. ' Retourne chez ton maître (me dit-il), il a besoin de toi dans son voyage, et je le promets (mettant la main sur son front) qu'avant quinze jours tu seras ici et tu pourras profiter de l'occasion du vaisseau français qui va bientôt partir. Tu peu compter sur ma parole (ajouta-t-il). Sois tranquille et contente jusqu'au dernier moment un maître qui en est si digne par l'amitié qu'il a pour toi et de laquelle son opposition te doit être une preuve '. Il finit par dire à ceux qui devaient me conduire de dire au Bey de prendre garde de me maltraiter.

Il était déjà nuit lorsque nous arrivâmes chez lui. En m'approchant je lui baisai la main et me tins debout à son

1 - Je fus étonné de la simplicité de sa coupe et de ses vêtements. On n'y doit point l'or prodigué comme à ceux de ses sujets. C'était un homme d'environ 70 ans, ayant une barbe qui aurait terni l'albâtre et qui lui donnait un air vénérable et une physionomie des plus prévenantes. C'était un chérif. C'est-à-dire un des descendants de Mohamed. Il n'avait point de sérail et n'avait jamais voulu se marier

côté jusqu'à ce que ceux qui m'avaient accompagné se fussent retirés. Il renvoya en même temps le monde qui était auprès de lui et nous nous trouvâmes bientôt seuls avec les pages. Ce fut en ce moment que je m'attendais à recevoir ses justes reproches, et la honte que j'avais de lui avoir déplu me faisait dire en moi-même que j'en étais bien digne. Mais le croira-t-on, il ne fut point question, à mon grand étonnement et celui des pages, de ce qui venait de se passer. Il me remit seulement les clefs des coffres en me disant d'aller finir de tout préparer pour notre départ du lendemain. Quoi penser, Quoi conjecturer d'un silence qui avait succédé à la plus grande fureur. Il y avait à en craindre sans doute un résultat funeste et qui ne devait s'effectuer que lorsque nous serions éloignés d'Alger. Eh bien. Le croira-t-on encore, il ne fut point non plus question ni de mon rachat, ni de ce que j'avais fait, qu'il en avait été après que je fus sorti de la mosquée; et ce silence sur cet article dura jusques au moment qu'il fallut enfin nous séparer.

Deux jours après que nous fûmes dehors d'Alger, M. le consul de France m'avait envoyé une lettre par un exprès, qui me marquait que le Dey venait d'écrire au grand kalif à Mascara de lui envoyer tout de suite le français dont il lui envoyait le nom. Qu'ainsi. Comme nous allions doucement, il ne tarderait pas à nous joindre et que mon maître ayant ordre de me donner la liberté au moment que ce chrétien nous joindrait, il espérait me revoir à Alger avant huit jours. Cette lettre m'avait entièrement consolé et persuadé que le silence du Bey ne venait que de la douleur que lui occasionnait mon départ qu'il savait prochain.

Nous étions à la veille de notre départ d'Alger. Tout était prêt pour le lendemain. J'avais arrangé et préparé les coffres et toutes les autres affaires comme si j'eusse été résolu à retourner à Mascara. Mon maître ne me parlait de rien concernant mon rachat. J'en agissais de même. Je faisais des démarches. Et lui les combattait en silence et était victorieux. Enfin. Le soir étant venu. Je mis fort doucement toutes les clefs qui étaient en mon pouvoir sous un oreiller de la coupe et je suivis le chrétien qui me conduisit à cette mosquée qui devait obliger le Bey de Mascara à s'en retourner sans moi. Aussitôt que j'y fus et qu'il en fut instruit, il devint furieux. Il m'envoya son luquil et bien d'autres personnes pour tâcher de me gagner à en sortir; mais j'étais inflexible et lui toujours plus inconsolable[1]. Je répondais à tous ceux qui m'approchaient qu'il m'en coûtait bien de quitter un maître auquel j'étais redevable de toutes ces douceurs dont mon esclavitude avait été remplie et que je regrettais beaucoup son amitié et les bontés qu'il m'avait si souvent prodiguées, mais que, mon père et ma mère s'étant sacrifiés pour parfaire la somme de ma rançon, je devais par reconnaissance répondre à leurs bontés et aller faire leur consolation, et que d'ailleurs l'amour que je leur avais toujours conservé ne me permettait pas de balancer un moment à dire adieu à un maître et à un pays dont le souvenir me serait toujours cher. Ces raisonnements. Joints à beaucoup d'autres, m'intéressaient tous les spectateurs et obligèrent enfin le

1 - Je sus que quelqu'un avait dit au Bey d'examiner si en me sauvant je ne lui avais rien emporté. A quoi il avait répondu: « Si vous connaissiez ce chrétien comme moi, vous ne tiendriez pas ce langage ».

Bey d'avoir recours au Régent, croyant que la crainte seule de son despote influerait sur mes sens, me ferait céder et me ramènerait (selon lui) à mon devoir.

Ce sultan ne tarda pas à m'envoyer deux personnes de considération, qui tachèrent de m'engager à sortir de la mosquée et de retourner chez mon maître; mais je leur répétais (en m'en défendant) ce que j'avais répondu aux messages de mon maître, ajoutant que j'étais au désespoir de falloir désobéir à un sultan aussi puissant et aussi respectable, mais que j'espérais de ses bontés qu'il voudrait bien me pardonner cette désobéissance et qu'au lieu de me forcer à retourner chez le bey. J'espérais et de l'humanité et de la justice dont il était susceptible qu'il ordonnerait mon départ et me rendrait à mes chers parents, que j'étais français et que, ma rançon étant venue, on ne pouvait me retenir plus longtemps sans se rendre coupable de la plus grande injustice. Je ne parlais pour lors qu'arabe et il semblait que Dieu m'avait donné des lumières qui me faisaient servir de cette langue avec plus de facilité que jamais je n'eusse fait et à l'étonnement de toutes les personnes que cet événement avait attirées. Pendant qu'on instruisait le Dey de ma réponse, un Turc qui était auprès de moi et que j'avais intéressé, me fit considérer que, quoique leur sultan n'eût pas le pouvoir de me sortir d'où j'étais, il pouvait, si mon opiniâtreté venait à lui déplaire, m'y faire trouver une mort inévitable en défendant qu'on ne m'y donne aucuns vivres. Il finit par me dire qu'il avait vu des exemples de cette nature et qu'il me conseillait, par l'intérêt que je lui avais inspiré, de ne point m'opposer à sortir de la mosquée si le Dey m'envoyait quelque autre message, que je n'avais rien à craindre en sortant de ce lieu qui me mettait à l'abri des châtiments que je pouvais appréhender de craindre et de venir avec eux lui parler. Je

bey, mon maître, à consentir à mon départ, que cette opiniâtreté me faisait beaucoup craindre, mais que j'avais pensé qu'il pouvait m'être d'une grande utilité, que je le priais pour cet effet de parler à son maître, et qu'après lui avoir dit que, ma rançon étant venue, il ne dépendait qu'a lui de profiter de cette somme, il tachât de le gagner à ce qu'il le demandât au mien comme s'il avait besoin de moi, et qu'après son départ, il me remettrait au consul, duquel il recevrait 300 sequins1. Je ne doutais point que cela ne suffit très bien. Vu que le kasnadji était beaucoup intéressé et que le pouvoir qu'il avait sur le Bey de mascara ne lui permettait guère de lui rien refuser2. Mon ami, qui jouissait de l'estime de son maître, réussit on ne peut mieux auprès de lui, l'ayant fait consentir à tout ce dont il l'avait prié. Il m'en témoigna sa joie dans la réponse qu'il me fit tout de suite. Il me marquait que l'affaire était faite, qu'il espérait de me voir le soir même dans leur maison et qu'il me conseillait de remettre entre les mains de quelqu'un de confiance ce que je pouvais avoir de plus précieux de peur que le dépit n'obligeât mon maître à m'en dépouiller. Ma joie était au comble. Il me semblait être déjà en liberté. Mais tout cela ne fut que momentané. J'avais déjà envoyé ma montre et mes autres meilleurs effets chez l'horloger dont j'ai parlé, lorsque, sur le soir même, je reçus une autre lettre de mon ami qui me marquait ce que venait de lui dire son maître et ce qu'il avait entendu lui-même. « j'ai vu (me

1 - Il était de Versailles, il fut racheté un an après moi et vint me voir à P.... où nous embrassâmes avec beaucoup de satisfaction.
2 - On n'oserait pas faire de pareilles propositions à un prince chrétien. Dans ce pays-là on ne se pique pas de délicatesse.

dit-il) le Bey baiser les pieds du kasnadji[1] en lui disant qu'il était entièrement le maître et de sa personne et de tout ce qu'il possédait, et qu'il en pouvait disposer à son gré, mais qu'il le Priait de lui laisser un esclave qui ne pouvait lui être de l'utilité qu'il lui était à lui par rapport à son camp, que cependant, s'il exigeait qu'il le lui cédât, il ne pouvait que lui obéir, mais que ce serait le sacrifice qui lui eût le plus coûté de sa vie. Cette lettre finissait par me dire que le casnagi n'ayant point voulu forcer mon maître à ce qui paraissait lui faire tant de peine, ce dernier avait triomphé de tout et qu'enfin il était au désespoir de n'avoir point réussi en ce qui lui avait paru si facile.

Me voilà encore une fois hors de toute espérance. Mon protecteur en était de même. Il m'avait écrit que mon maître lui avait dit qu'il sacrifierait plutôt une somme pareille à celle de ma rançon que de me céder, ce qui ôtait tout espoir de réussir. Je lui communiquai par une réponse ce que venait de me conseiller un chrétien: c'était de gagner franchise dans la mosquée d'un saint musulman et d'où personne ne pouvait me faire sortir[2], à laquelle il me répondit que je fisse ce qui me paraîtrait à propos, que je pouvais compter sur lui et qu'il me seconderait en tout où pouvait s'étendre le pouvoir dont il était revêtu.

1 - Il lui souvent demandé des petits nègres qu'il avait à son service, ou plutôt il les envoyait chercher sans seulement l'en prévenir qu'après les avoir en son pouvoir.
2 - C'est la mosquée d'un de leurs prétendus saints appelé sidi Loalli. On y est si franc que quand on serait coupable du plus grand de tous les crimes. Personne ne peut en faire sortir, pas même le dey. C'est ce qui autorise plusieurs turcs à commettre bien des excès. Elle est toujours pleine de ces sortes de gens.

maison qui nous était destinée et, aussitôt déchargé, je lui envoyai par tous les domestiques ce qui dépendait de la contribution en sus de l'argent. Il arriva enfin de chez le dey, et, à l'exemple de toute sa cour, je lui baisai la main pour le féliciter du succès de son entrée chez le régent, jamais il n'avait eu tant de bonté pour moi, ni ne m'avait témoigné tant d'amitié que dans ce séjour à Alger. Ce qui m'étonnait beaucoup; mais j'en sus après la raison.

Le travail que j'avais à faire pendant les quatre premiers jours est inexprimable. Les distributions de tous les présents ne me laissaient jouir d'aucun moment. Le troisième jour, pendant que j'étais occupé dans le magasin, on apporta à mon maître deux billets écrits en français- le luquil qui m'avait acheté et dont j'ai parlé était alors avec lui – personne des pages ne le surent déchiffrer, de manière qu'on fut obligé de me faire appeler. J'arrive et, ayant lu les billets, je lui dis qu'ils contenaient le nom d'un chrétien qui était à mascara et le mien. Que notre rachat était venu et que nous devions partir.

Le bey, sans me rien répondre, déchira celui où était mon nom et garda l'autre. Je ne fus pas trop satisfait de cela. Mais Néanmoins j'imaginais bien que cette action d'elle-même ne pouvait influer sur rien. J'avais remis à l'horloger que je connaissais les 2000l,en question pour remettre à M. le consul et celui-ci faisait de plus grandes démarches auprès du dey. Ce qui fit que le lendemain que mon maître fut chez lui, il lui dit: ' je t'ai envoyé les noms de deux chrétiens qui sont en ton pouvoir. Leur rachat est venu; il faut les envoyer ici. Le consul m'adit qu'il le remettrait la somme de leur rançon quand tu voudrais ',

---

=d'y consentir. On ne voit plus des ces exemples comme autre fois qu'ils étaient si communs.

Mon maître, qui s'attendait bien à ce que venait de lui dire le régent, selon que je le sus pas la suite, que quant à l'un de ces chrétiens, il le lui enverrait tout de suite, mais que, quant à l'autre, Il le priait de ne point le forcer à en faire de même, attendu qu'il était auprès de lui depuis longtemps et qu'il lui était impossible de se passer d'un esclave auquel il avait confié toutes les affaires de sa maison et son camp; et qu'enfin, s'il l'obligeait absolument à lui obéir, il le priverait d'un homme dont il lui serait à jais impossible de trouver le semblable.

Mais cependant, lui répliqua le dey, on ne peut guère retenir les gens de cette nation. Néanmoins, puisque c'est ainsi, je ne m'en mêlerai point. C'est à toi de le voir le consul et à tâcher de t'arranger avec lui.

Le Bey me cachait tout ce qu'on lui disait à mon égard et me prodiguait plus d'amitié; mais celui qui était dans mes intérêts et qui les prenait si à coeur m'instruisait et de ses démarches et leur peu de succès, ce qui commençait à me faire craindre que notre projet ne vint sans effet. J'avais lieu de le craindre aussi puisque la voie du dey, ou s'était fondé le consul, était devenue neutre. Ce dernier cependant ne voulait point céder son à son maître, qui s'opiniâtrait de plus en plus. Enfin j'étais absorbé et de travail et de toutes les difficultés que je voyais sur le succès de mon rachat. Néanmoins j'imaginai un moyen de réussir qui me paraissait infaillible et qui l'eût été si l'amitié, ou pour mieux dire le besoin qu'avait de moi le Bey ne l'eût fait triompher. J'écrivis à un de mes amis esclave et casnadal du kasnadji, qui après le dey,est le plus grand du pays et auquel mon maître est entièrement subordonné et soumis, étant obligé en l'abordant de lui baiser la main. Je marquai à cet ami que mon rachat étant venu, aucune des démarches qu'avait fait le consul n'avaient pu gagner le

Nous venions de camper fort près d'Alger où nous devions entrer le lendemain. Un renégat arrive de cette ville venant au devant de mon maître pour lui faire sa cour[1]. Le consul, qui le connaissait, l'avait chargé, non sans vues, de la lettre[2] qu'il m'écrivait, afin qu'il me la remît, ce qu'il ne manqua pas de faire aussitôt qu'il fut dans la tente et qu'il se fut acquitté de son devoir auprès du bey. Ce dernier voulut aussitôt savoir ce qu'elle marquait, à quoi je ne m'opposais point, d'autant plus qu'elle était conforme à ce que je désirais. Mon maitre, à la teneur de cette lettre et à la joie qu'il voyait que j'avais peine à contenir. Se mit à rire en me disant: 'et que peuvent ton consul et ton ministre sur ce qui dépend de moi seul. Il vaudrait mieux (continua-t-il) qu'ils ne se mêlassent ni l'un ni l'autre d'une entreprise dans laquelle ils ne réussiront jamais. Ne te fais point une illusion dont tu serais la dupe. Tu ne partiras point. Tu te feras turc, et sans tarder plus longtemps que celui qu'il nous faut pour retourner à Mascara, dussé-je t'y contraindre par la plus grande rigueur '. Je ne craignais plus d'après cette lettre de lui répondre hardiment: ce qui fit que je lui dis que rien ne pouvait me retenir puisque mon rachat était venu. ' Je suis français, lui dis-je, et par conséquent en donnant la rançon convenue pour les esclaves de cette nation. On ne peut me refuser la liberté sans manquer au traité qu'il y a entre votre régence et ma patrie. Quant aux menaces que vous venez de me faire (continuai-je) pour me

1 - ce renégat était très bien considéré. Attendu qu'il avait eu pendant longtemps un emploi distingué et qui l'avait enrichi.

2 - cette lettre était pour m'instruire des ordres qu'il avait reçu du ministre pour me racheter, et elle était conforme à ce que nous avions convenu. C'est pourquoi il en chargea le renégat pensant bien qu'il le dirait au bey.

forcer à renier, je ne saurais me persuader que vous vous déterminez jamais à commettre un excès qui ne cadrerait guère avec votre rang ni avec l'amitié et les bontés que vous m'avez si souvent prodiguées et qui ne peuvent être si vite éteintes dans un cœur aussi généreux que le vôtre. Et qui de plus trouverait une résistance qui me ferait préférer la mort plutôt que de céder.

Nous arrivâmes enfin à Alger avec beaucoup de magnificence[1], et, pendant que mon maître allait chez le dey. Accompagné du laga[2], je conduis mon convoi dans la

1 - En entrant dans la ville. Les pages marchant devant le Bey jettent d'argent au peuple, en ayant les poches pleines pour cet effet.

2 - le alag est celui qui commande tous les pays des différents beys. Il vient toujours au devant j'eux et entrent ensemble chez le dey. et en sort avec eux lorsque la contribution est reçue. Celle du Bey de mascara est tous les six mois d'environ 333.000 L. d'un cheval de prix pour l'usage du dey, de 25 mules de 12 esclaves nègres des deux sexes. De 25 quintaux de cire de 50 peaux de bonnes pleines de beurre, de 25 grands pots de miel, de 25 couvertes de laine rouge très fine, de 50 paires de babouches rouges et de 50 vêtements complets de laine destinés pour les malheureux esclaves des bagnes. En sus de ce que je viens de nommer, le bey, ainsi que le kalif. sont obligés de porter tous les matins, pendant les 8 jours qu'on reste à Alger 2.000 L en allant baiser la main du dey. Il faut qu'ils donnent les étrennes à tout le monde qui est attaché à sa maison, ce qui est réglé par écrit et qui se monte à une grosse somme. Je ne détaille point ce qu'ils sont obligés le donner aux grands du pays. Je dirai seulement, d'après les connaissances que j'en ai, que l'argent et les effets qu'ils leur distribuent montent quelquefois plus haut que la contribution. C'est dans le moment que le Bey vient donner cette contribution qu'il peut perdre sa tête si quelqu'un y sur disait et que le Dey voulut être assez inhumain que=

par la suite consentir à ce qu'il désirait avec plus de plaisir que je ne la ferais aujourd'hui.

Cette réponse cessa les instances de mon maître pour le moment. Mais ne le satisfit point autant qu'il l'attendait. Je ne lui en fis cependant jamais d'autres jusqu'au moment qu'il fallut enfin lever le masque et qu'il fut instruit que mon rachat était arrivé.

D'un autre côté les prières que me faisaient les femmes du serrait n'étaient pas moindres que celles du maître. Il avait probablement dit à quelqu'une d'elles qu'il allait me faire renier et ce bruit y fut si vite répondu que chaque fois que j'y entrais. Elle m'en témoignait leur joie. Et particulièrement la sultane. Ma protectrice. Elles s'imaginaient que c'était une grande faveur que me voulait faire le Bey et qu'au lieu de m'y opposer je me croirais fort heureux d'y consentir. Ce qui fit qu'elles me regardaient dès lors comme musulman et qu'elles m'appelaient déjà du nom de mustapha. Mais aussitôt qu'elles furent instruites de mon refus opiniâtre, elles en furent bien étonnées. Ce qui les obligea, à chaque occasion qui se présentait. De me réitérer leurs instances et leurs prières de la manière la plus engageante. J'ai vu des moments où ma bienfaitrice allait triompher de mes résolutions. Elle savait se servir de paroles si séduisantes qu'il était presque impossible d'y résister. Dans un de ces moments où elle me priait avant beaucoup d'instances, je m'aperçus qu'elle avait des ciseaux dans les mains et qu'elle avait envie de s'en servir pour me couper les cheveux. Cette action inexécutés, quoique ne venant que d'un accès d'amitié, me déplut infiniment et m'obligea à lui dire que la crainte qu'elle me fût par la suite ce qu'elle n'avait pu faire alors ferait que je la fuirais, malgré le grand plaisir que je ressentais lorsque j'étais auprès d'elle je lui tins parole, car je ne la vie plus et

fuyais même le serrait tant que je pouvais, craignant la séduction.

Je ne m'occupai donc qu'à ce qui devait me débarrasser et des uns et des autres et à joindre la somme convenue avec M. le consul et une pareille si je le pouvais honnêtement. Pour mon voyage je faisais le moins de dépense qu'il m'était possible et je fis si bien qu'enfin je parvins à ramasser près de 200 louis avant que notre départ d'Alger fût venu. Je ne me fiais plus à personne. J'avais fait moi- même une ceinture de toile d'hollande que je ne quittais jamais de dessus le corps. Sous la chemise. Et c'était là que je cachais mon argent. J'écrivis en même tems à Alger au consul pour lui dire que la somme en question était prête et qu'il pouvait en toute sûreté travailler à ce à quoi elle était destinée; mais je ne lui parlai point que j'en eusse d'autre que celle de ma rançon.

Le mois de septembre arrive enfin et avec lui notre départ pour Alger. Je me réjouissais d'être porteur d'une somme qui allait m'éloigner d'un pays que les instances et l'opiniâtreté du Bey à me faire renier ma religion m'avaient rendu presque odieux, et, ne doutant point que ce ne fût le dernier voyage que je faisais avec lui, je me livrais entièrement à la joie et au plaisir que je ressentais en considérant que j'étais à la veille de rentrer dans ma chère patrie et d'aller me jeter dans les bras d'un père et d'une mère dont la tendresse était sans exemple et desquels j'étais éloigné depuis tant de tems. Quelle satisfaction pour eux et pour moi (disais-je). En est-il de comparable, Ah! Que ne puis-je en jouir à l'instant même! Je faisais ces douces et consolantes réflexions lorsqu'il me vint une lettre qui me fut une preuve que M. le consul commençait à faire les démarches qu'il m'avait promis, et qui servit à combler la joie dont tous mes sens étaient déjà remplis.

était instruit et de ma résolution et des projets que nous avions fait à Alger; car tout paraissait s'y opposer. Jamais il n'avait eu tant de bontés pour moi. Il ne se passait aucun jour qu'il ne me parlât de me faire dans tout autre pays. Je me débarrassais de ses instances le mieux que je pouvais, faisant toujours en sorte de lui ôter toute espérance afin qu'il ne m'en fis plus. Je le remerciais des bontés qu'il avait eu pour moi et qu'il voulait encore me prodiguer et le priais d'être persuadé que j'étais au désespoir de ne pouvoir répondre à ses offres qui étaient et contre mes premiers devoirs et contre l'amour que j'avais pour mes parents et pour ma patrie. Mes réponses ne le déconcertaient point. A tout moment nouvelles instances, jointes même à des prières et quelquefois à des menaces; ' penses-tu (me dit-il) retourner dans ton pays, ton départ dépend de moi seul. Tu m'appartiens. Personne ne peut changer ton sort que d'après mon consentement, et juge si je le donnerai jamais. Veux-tu toujours rester chrétien. Et par là ennemi du peuple parmi lequel tu vis depuis longtemps, veux- tu toujours être infidèle à la loi qui t'invite à entrer dans son sein afin de l'éloigner de l'abîme où doit le plonger infailliblement celle que tu professes, crois-moi; sois notre frère et fais que je n'aie plus à rougir d'accorder mon amitié à un homme dont la foi est contraire à la nôtre. Je te jure (continua-t-il que tu n'auras jamais à te repentir d'avoir consenti à mes vues. Je te comblerai de bienfaits. Je te donnerai une belle maison dès le moment que tu seras musulman. Je te donnerai deux jeunes femmes de mon sérail, la plus âgée desquelles n'a pas seulement 13 ans (en effet je les connaissais, et elles rougissaient toutes les fois qu'elles me voyaient sachant qu'elles le prix qui m'était destiné si j'avais voulu m'écarter du plus grand de mes devoirs). Je te donnerai deux beaux chevaux, des belles

armes. Je t'assurerai la place que tu as pendant toute ma vie; enfin je te mettrai au nombre de mes enfants et aurai pour toi la même tendresse. Crois-moi, je te le répète. Ne t'oppose point à ce qui doit faire ton bonheur et combler ma satisfaction. Que ton opiniâtreté ne m'oblige point à me servir d'autres voies que celles de la douceur. Et tache surtout d'éviter que la rigueur dont je pourrais me servir par la suite ne te fasse consentir à ce qui te rendrait odieux et méprisable à nos yeux, au lieu qu'un consentement volontaire et partant des purs sentiments de ton cœur te fera chérir à jamais de tout le monde et principalement de ton maître.

Quoi répondre à tant d'excès de bonté, j'étais confus et interdit d'une manière à ne pouvoir parler. Ce n'est point cependant que rien de ce que m'offrait le Bey me tentât. Je craignais seulement que mes refus le rendissent furieux et ne l'obligeassent à se servir de la voie dont il m'avait presque menacé. Cependant il n'y avait point de milieu. Il fallait répondre et par conséquent s'opposer entièrement à ce que je venais d'entendre. Ce que nous avions arrêté avec M. le consul à Alger fut pour moi d'un grand secours, et, entièrement persuadé comme je l'étais que cela ne pouvait que réussir. J'imaginai qu'en flattant mon maître par quelque espérance. Je pourrais me débarrasser de lui, du moins pour ce moment. Je lui répondis donc que j'étais aussi flatté que surpris de voir jusques à quel point il voulait porter l'excès de ses bontés. Et que, sachant très bien les apprécier. Je me détestais moi- même de ne pouvoir y répondre tout de suite, mais que j'espérais de ces mêmes bontés qu'il voudrait bien pardonner un refus qui ne serait peut-être que momentané et me laisser encore quelque tems comme-j'étais, afin que me familiarisant de plus en plus avec la langue et avec leurs mœurs, je puisse

mes 100 pistoles, mais non sans douleur. Un autre[1] m'ayant demandé 10 sequins à emprunter pour faire un petit commerce dans le porche[2], et lui ayant prêté (vu qu'il lui était très possible de me les rendre par la suite), il fut assez mal-honnête homme que de partir sans me les rendre, son rachat étant venu pendant que j'étais absent avec mon maître, ayant été en une des gazia dont j'ai parlé. Il fallut me consoler aussi de cette perte qui, jointe à tant d'autres, me rendirent d'une prodigalité qui venait plutôt du désespoir que de ma générosité.

Les deux messieurs d'Alger auxquels j'étais recommandé n'ignoraient point non plus et ma conduite et mes prodigalités. Il m'en témoignèrent leur déplaisir l'avant dernière fois que je fus dans leur ville avec mon maître. Ils me blâmaient beaucoup de ce que n'ayant point su considérer l'instabilité de mon sort, je n'avais point profité de la facilité que le ciel m'avait procuré de rompre mes fers et faire la consolation de mes parents près desquels (disaient -ils) je pourrais être depuis bien longtemps. Ils avaient bien raison en me faisant ces reproches; je le voyais fort bien; mais néanmoins je ne pouvais me persuader qu'il fut possible de me racheter vu l'opiniâtreté à s'y opposer que je devais attendre de mon maître. Je communiquai cette crainte à ces messieurs. Mais

1 - c'étais un orfèvre languedocien, que j'aimais beaucoup à cause que le pays qui m'a vu naître n'est éloigné du sien que 2 ou 3 lieues et qu'il connaissait ma famille.

2 - il y a des esclaves dans le porche à mascara qui font du vin avec des raisins secs et qu'ils vendent, ainsi que du pain et de la viande; et, comme rien n'avilit dans ce pays-là. Cet homme, quoique d'une famille honnête. Se décida à entreprendre ce commerce afin de gagner quelque chose qui adoucît ses fers.

aussitôt M. le consul me dit: ' donnez-moi seulement 2.000 L et je vous donne ma parole d'honneur que vous serez racheté malgré les oppositions de ce sultan[1] ' il ne m'était pas bien difficile d'avoir cette somme, et même davantage, en peu de tems, de sorte que je répondis au consul et l'assurai que l'année prochaine, venant avec le bey, je lui remettrai 200 sequins. Eh bien, me dit-il, si c'est ainsi, aussitôt qu'ils seront en mon pouvoir, je ferai une lettre comme si elle me venait du ministre et qui me donnât ordre de vous racheter tout de suite; et d'après cet ordre je ferai des démarches qui ne pourront que réussir à vous éloigner d'un pays où par la suite vous vous perdiez infailliblement.

Il s'agissait donc de ramasser de quoi me racheter, et, pour pouvoir y parvenir. D'avoir une conduite toute opposée à celle que j'avais eue jusques alors. C'était bien difficile. Néanmoins il fallait le faire pour changer de sort. Je l'avais sérieusement considéré et toutes les réflexions ne servaient qu'à me faire craindre son peu de durée et par là un changement qui me rendrait l'homme le plus malheureux. De plus j'étais coupable de bien des incartades qui, d'après les menaces qu'elles m'avaient attirées, m'assuraient que si je venais à commettre la moindre faute, je perdrais indubitablement l'amitié de mon maître et le portrais à exercer sur moi les excès de la grande colère dont on a pu voir qu'il était susceptible. Ainsi tout cela me fit prendre la résolution de me comporter de manière à pouvoir faire réussir nos projets.

La conduite du Bey envers moi pendant la dernière année que je restai auprès de lui semblait annoncer qu'il

1 - mon rachat coûta 3.000 livres. Ce qui obligera le consul à les compléter fut l'ordre qu'il avait du ministre d'aider tous ceux de sa nation qui auraient une partie de leur rançon.

Les difficultés d'une libération

Je continuai donc mes fonctions et jouissais toujours de l'estime de mon maître et de celle de toute sacour, j'avais déjà été quatre fois à Alger, deux fois avec le Bey et autant avec le grand calif[1]. C'étaient ces voyages, joints à mon libertinage. Qui m'avaient toujours tenu sans argent malgré mes grands profits, car dieu m'ayant donné une âme sensible, je ne pouvais que l'être au sort de tant de malheureux chrétien qui venaient importer cette sensibilité. Leur physionomie et leurs vêtements annonçaient seuls la déplorable situation où ils étaient. Ce qui m'obligeait à n'en rebuter aucun. Ils venaient au devant de moi. Chaque fois que je devais arriver à alger. A plus de quatre lieues. J'en trouvais à chaque instant, les uns me présentant des fleurs. Les autres des fruits. Enfin, avant que j'entrasse dans l ville je ne trouvais déjà plus rien de ce que j'avais résolu de sacrifier dans tout mon voyage. Etant dans Alger c'était encore pis depuis le matin jusqu'au soir pendant les huit jours que nous y restions. Il y en avait toujours un grand nombre dans notre maison et je ne pouvais m'en débarrasser qu'après leur avoir donné à tous quelque chose. Le désespoir les rend si insolents que si, en leur distribuant ces aumônes, j'avais oublié quelqu'un d'eux, ils m'auraient accablé de sottises. Si je sortais pour aller à la messe ou dîner chez M. le consul de France ou chez le père gardien des trinitaires, qui ne manquaient jamais de m'inviter chaque fois que je venais dans leur ville. Ils m'absorbaient

1 - le Bey va à Alger tous les ans au mois de septembre et le calif au mois d'avril de tous les ans. J'étais obligé d'aller avec tous les deux afin de conduire les contributions, dont le transport était à ma charge.

jusqu'à venir me baiser les pieds. Enfin je me dirai point les sacrifices que je faisais à chaque voyage d'Alger de peur qu'on ne le crût point, car pour le croire il faut avoir vu la misère de ceux qui y sont et avoir ma sensibilité.

Mon père avait été déjà instruit de mon bien-être, et, par la bouche de plusieurs esclaves rachetés qui passaient auprès de lui, de tout le bien que je faisais aux chrétiens; et, comme c'est un homme d'une grande dévotion, il en était charmé et m'en témoignait sa joie chaque fois qu'il m'écrivait, mais néanmoins il me disait toujours qu'il fallait tacher de me conserver quelque chose pour, lorsque je serais racheté, arriver au pays décemment et m'y faire honneur, en faisant voir que je n'avais pas fait mauvais usage des grands profits que j'avais et dont toute la ville était instruite. Toutes ces représentations non plus que celles de plusieurs amis, ne purent rien sur ma prodigalité. J'étais toujours le même. Ce qui avait beaucoup contribué à me rendre ainsi étaient plusieurs tours que me jouèrent divers chrétiens auxquels je me fiais. A un[1] qui passait pour le plus honnête homme de tous les chrétiens qui étaient à mascara, lui ayant remis 100 connaissais, afin de me les garder jusqu'à l'époque de mon rachat, j'eus le déplaisir d'apprendre, au moment que je lui demandai mon argent, qu'il l'avait dépensé, ou du moins il le disait, quel parti devais-je prendre pour lors, m'en plaindre au bey, j'exposais cet homme, quoique couple, a avoir la tête tranche, ou a la corde. D'un autre cote je n'attirais indubitablement sa haine pour avoir confie ainsi cet argent. Enfin je voyais qu'il ne pouvait qu'en résulter des choses des agréables si je m'étais plaint. Ainsi je me consolai de

1 - c'était un homme déjà âgé et qui avait été officié en France dans le régiment de la couronne.

possible de prendre. "Je t'ai envoyé chercher (me dit-il) afin de te prévenir pour la dernière fois que si l'on me fait encore des plaintes contre toi, ou qu'on m'instruise que tu commets les mêmes fautes dont tu t'es rendu coupable jusqu'à présent et que j'ai fait d'ignorer, je te jure (mettant les mains sur sa barbe) sur ma foi de le ressentir. Ainsi retire-toi, et tâche d'éviter ce que tu as déjà mérité dont tu as eu tant de preuves. Considère qu'elles n'ont point encore diminué. Mais que la moindre faute peut les éteindre entièrement et y faire succéder ce que ma vivacité est capable de me suggérer. Je ne pus rien répondre à mon maître, ni même en ce moment il ne me l'avait point permis. Ainsi je me retirai fort content que les choses se fussent ainsi passées et surtout de ce que je n'avais point encore perdu son amitié. Je ne manquai point le lendemain de faire remercier ma protectrice. En attendant que je pusse le faire moi-même, ce que je ne tardai point. Et lui promis de ne plus me rendre coupable à l'avenir de pareilles incartades. Je lui tins parole, sans cependant pouvoir me débarrasser de la négresse qui m'avait si bien servi en ce dernier événement.

Ce qui ne contribua pas peu encore à me faire changer de conduite fut l'exemple qui succéda aux menaces que venait de me faire mon maître. La femme d'un des plus grands de sa cour fut trouvée. En l'absence de son mari. Avec un kaid, homme très comme il faut et d'une grande opulence, commettant le crime de l'adultère. On vint l'en avertir à 11 heures du soir, qui était le moment où on venait de les surprendre. Et le sultan devint si furieux à cette nouvelle que, n'écoulant que la colère dont il était malheuresement susceptible. Il ordonna tout de suite que la femme fût pendue à la porte de sa maison et qu'on donnât à son complice, après lui avoir fait complet 600 sequins, 400

coups de bâton. Tout cela fut exécuté à la minute; car, avant qu'il fût minuit. La femme n'était déjà plus. Le maure était rossé de coups et le Bey avait les 600 sequins qu'il avait exigés. Qu'on juge d'après cela quel DUT être l'étonnement et le désespoir du malheureux absent. Eh bien. Captivé par les préjugés de la superstition de sa nation. Il fut bientôt consolé: car il parut à la cour peu de jours après cette époque.

Je me comporter dont tout différemment que je n'avais fait jusques alors. Pendant tout le tems que je restais en ville, je m'attachai entièrement à mes devoirs et à la lecture. La dernière année que j'y fus, je fis plusieurs voyages à Moustaganem[1] pour faire charger les vaisseaux qui venaient dans ce port, et, comme c'était avec mon maître qu'il commerçaient, c'était moi qui était chargé de tenir tous les états de ce qui formait les cargaisons[2], ce qui me procurait l'occasion de traiter avec plusieurs français, qui m'auraient bien embarqué avec eux si je n'ensse été gardé à vue d'après les ordres qu'on avait donné le bey.

1 - petite ville et port dépendant de mascara et éloigné de cette ville d'environ 12 lieues: et d'Oran de 4 lieues seulement.

2 - elles étaient en grain tout froment, les maures n'en connaissant point d'autre, en laine et en cire. Ce sont les grandes productions de ce pays-la et qui font tout son commerce. Il en fournit à plusieurs nations. J'ai vu des années que nous avons chargé jusqu'à 10 vaisseaux tant français qu'anglais, ce qui prouve les quantités de grains qu'on doit recueillir dans le pays dépendant du Bey de mascara, de même que la laine et la cire qu'il produit.

petit jardin du bey, et que je m'y rendrais. C'était un lieu où j'allais promener bien souvent. Et ainsi il me semblait que je pouvais y aller sans donner rien à soupçonner. Nous ne manquâmes point ni l'un ni l'autre au rendez-vous et je postai quatre sentinelles (personnes dont je me fiais) aux entrées du jardin pour éviter d'être surpris. Mais je me méfiais de ceux qui étaient dehors sans craindre ceux qui pouvaient être dedans. Enfin à peine fûmes nous ensemble que je vis un homme s'approcher de nous et que je reconnus être mon plus grand ennemi, me haïssant on ne peut pas plus à cause que je lui avais fait donner il y a peut de jour 200 coups de bâton pour l'avoir trouvé à voler quelque chose à mon maître. Cette vue me confondit entièrement. Et, n'ignorant point que cet homme ne nous eût vu. Je m'en retournai le cœur rempli d'effroi. Ne doutant pas que. Trouvant une occasion de se venger. Il ne manquerait pas de le faire en contant au Bey cette aventure, qui, augmentant celles dont il était déjà instruit, aurait pu l'obliger à me châtier et m'ôter son estime. Comme il était tard, mon ennemi ne peut lui parler que le lendemain: ce qui fit que dans la nuit, étant avec ma négresse, Je lui racontai ce qui m'était arrivé et lui dit qu'il n'y avait qu'elle qui pût me sauver du châtiment qui me menaçait. Qu'il fallait pour cela parler à la Quiriba (c'était la sultane dans l'esprit de laquelle j'étais si bien) et, en lui racontant mon aventure, la prier de ma part de me mettre à l'abri de ce qui pouvait en résulter de funeste. Qu'il n'y avait qu'elle qui pût y parvenir et que j'attendais cette grâce de sa part.

Cette pauvre fille fut si affligée de ce récit qu'elle fondait en larmes et me faisait les plus grands reproches. Mais enfin, l'ayant consolée, elle me promit en me quittant que, dès le lever de sa maîtresse, elle irait lui parler, elle me manqua pas en effet, ni le maure non plus de raconter au

Bey le lendemain comme il m'avait trouvé dans son jardin avec une femme. En ce moment non maître devint furieux et entra tout de suite dans son sérail, laissant toute sa cour étonnée. Sa colère se manifesta bientôt parmi toutes les femmes, et la sultane en question, sachant bien, d'après ce que lui avait déjà dit la négresse d'où provenait la mauvaise humeur de son mari, accourut auprès de lui. Elle eut de la peine à lui faire dire ce qu'il avait: mais cependant, après bien des prières, il lui détailla ce qu'on lui avait dit de moi et qu'elle savait fort bien. Il finit par lui dire qu'il était entré dans le sérail pour m'y envoyer chercher et, me faisant tenir par quatre négresses, me donner lui-même 600 coups de bâton. Ma protectrice, qui avait beaucoup de prérogative sur l'esprit de son époux, employa tout ce qui pouvait contribuer à le calmer et à me disculper, l'affirmant que j'étais incapable de commettre cette faute, que l'homme qui lui avait parlé pouvait avoir quelque haine contre moi, qui l'avait obligé à lui en imposer, que se qui lui était une preuve de mon innocence, c'était la manière dont je me comportais dans le sérail avec les femmes toutes les fois que j'y venais et qu'enfin il devait considérer et sur toute chose que s'il me châtiait de la manière qu'il le disait, il me rendrait incapable de travailler et se priverait d'une personne qui lui était si utile dans ses affaires. Toutes ces raisons, Jointes à plusieurs autres dont se servit la sultane, parvinrent enfin, Quoiqu'avec peine à calmer son mari, qui, après l'avoir renvoyée, M'envoya chercher par un petit eunuque. Tous mes sens étaient glacés depuis que mon maître était entré dans le sérail et ils le furent davantage lorsqu'on vint me dire d'aller lui parler. Il fallut néanmoins obéir: mais pour lui faire voir que j'ignorais la raison qui l'avait obligé à me faire demander, je surmontai ma crainte et m'approchai de lui avec l'air le plus gai qu'il me fut

J'étais parvenu aussi à gagner tellement l'estime d'une d'entrer elles que je n'entrais jamais au sérail qu'elle ne me fit présent de quelque chose. A quoi je répondais toujours par quelque autre chose de rare que je faisais venir d'Alger: et je peux dire même que si je n'eusse craint la juste vengeance de mon maître, j'aurais pu pousser jusqu'au comble l'amitié qu'elle me prouvait à chaque instant. Ce qui avait beaucoup contribué à ce que cette femme s'attachât à moi c'était l'amitié que j'avais pour deux de ses enfants. Qui étaient charmants. C'était deux petits garçons: le plus grand pouvait avoir sept ans. Je les avais toujours dans ma chambre et les comblais de caresses. De quoi leur mère en étant très bien instruite m'en prouvait sa satisfaction et sa gratitude en m'accordant une estime qui m'étonnait.

Un jour que j'étais dans le sérail et que parlais à la favorite du bey, celui-ci entre et nous surprend ensemble. Aussitôt qu'elle l'aperçut, elle se mit à courir et fut se cacher. Pour moi, je restai à la même place sans dire mot. Mon maître me dit pour lors d'u ton qui annonçait la colère où il était: " quel entretien avais-tu avec cette femme. " heureusement j'avais une petite bouteille à la main. Ce qui me fit trouver le prétexte de lui répondre que. N'ayant plus dans le magasin de l'eau [de] rose, je lui en demandais un peu pour me bassiner les yeux qui me faisaient mal depuis quelques jours d'après cette réponse il s'en fut et me laissa bien en peine. Aussitôt qu'il fut ressorti. La même femme vint me demander ce qu'il m'avait dit, et, l'ayant satisfaite, quelle s'attendait qu'il bien contente qu cela se fût passé ainsi, qu'elle s'attendait qu'il nous aurait puni. Nous en fûmes donc quittes pour la peur.

Quant aux négresses. Elles étaient toujours auprès de moi pour me faire enrager. Et m'aider à faire des

chandelles. Il y en avait cependant une fort jeune parmi elles et assez aimable. Elle était capable, malgré sa noirceur, d'inspirer une passion. Je m'insinuai auprès d'elle et exigeais qu'elle travaillât avec moi; à quoi elle ne se défendit point te m'aidait autant qu'elle le pouvait, j'eus par ce moyen l'occasion de l'entretenir en particulier et, après bien des conversations assez libres, elle me dit que si je voulais me trouver toutes les nuits dessus la terrasse de la maison, elle me promettait de venir m'y trouver. J'étais jeune et enclins au libertinage. Et ainsi je ne balançai point pour lui répandre que je ne demandais pas mieux. Elle ne manqua point à sa promesse, non plus que moi. et nous nous réjouissions l'un et l'autre de notre connaissance sans considérer à quoi nous nous exposions. C'était par son canal que je savais tout ce qui se passait dans le sérail. Ce qui quelquefois m'importait de savoir. Enfin il y avait déjà longtemps que je fréquentais cette femme lorsqu'un événement survint qui me fit réjouir de l'avoir connue, d'autant plus qu'elle me fut fort utile, comme on va la voir.

J'avais connu une femme. Il y avait quelque tems dans la ville et chez laquelle je n'allais plus. Elle m'en fit faire des reproches. Avec des instances de ne la point priver (disait-elle) du plaisir de me voir, ajoutant qu'elle m'attendait le soir même chez elle, ou que si je ne voulais point y venir. Que je lui indiquasse un endroit où je pusse me rendre. Qu'elle lui prodiguait que ma personne; j'en étais persuadé: mais elle était aimable. Et. Si je m'étais éloigné de ses charmes, ce n'était point par inconstance: c'était seulement que je ne pouvais guère aller la voir sans m'exposer, vu l'emplacement de sa maison. Qui était entourée de celles des gens employés auprès de mon maître. Enfin. c'étant encore à mon mauvais penchant. Je lui fis répondre de se trouver à sept heures du soir dans le

Tout cela ne m'empêche pas de continuer à mener une vie assez déréglée, sans cependant manquer jamais aux devoirs de mon état. Je passais très souvent des nuits dehors de la maison et les pages me faisant la main, je n'étais jamais découvert. Néanmoins une nuit que j'étais sorti enveloppé d'un hek et d'un manteau noir à l'usage des maures. Je fus rencontré à l'entrée d'un endroit un peu suspect par un domestique de ceux qui ont soin des cheveux du bey, qui m'ayant reconnu me faisait beaucoup craindre. J'étais toujours accompagné d'un jeune homme très comme il fait avec qui j'étais étroitement lié, qui, connaissant la peine où j'étais me dit qu'il était possible de se mettre à l'abri de toute crainte de la part de ce domestique. Que je n'avais qu'à lui donner quelque chose et qu'il serait bien content de son aventure. Je lui donnai en effet quatre mahabouts[1] et il se retira en me promettant et jurant sur sa barbe[2] que jamais il ne parlerait de rien. Je fus un peu tranquille après ce serment: mais néanmoins je voulus me retirer tout de suite.

J'entrais aussi souvent dans le sérail de mon maître[3] il m'y faisait appeler lorsqu'il avait quelques ordres à me

---

1 - environ trente livres.

2 - ce sont leurs serments ordinaires et auxquels ils ne manquent presque jamais.

3 - il peut être composé d'environ 120 femmes, y comprises les quatre sultanes et les négresses libres ou esclaves. Ces femmes ne sortent qu'une fois chaque année. Quelle vont passer une journée entière au jardin du bey. Elles sortent ce jour-là une heure avant le jour afin de n'être vues de personne, et rentrent une heure après la nuit. On fait publier avant cette sortie qu'aucun homme ne s'approche de ce jardin à une distance fixée. C'est ces jours là qu'il est permis à toutes les femmes mises décemment d'entrer dans ce jardin où sont les=

donner ou pour compter l'argent de la contribution lorsque le calif ou lui étaient près de leur départ. Mais le plus que j'y restais c'était lorsqu'il fallait faire des chandelles[1]. C'était pour lors que j'avais le tems de voir toutes les femmes qui le composent. Ce qui fit que j'étais connu de toutes et que j'étais assez familier avec plusieurs. J'étais parvenu même à parler aux sultanes, qui, curieuses de voir et de parler à un chrétien, s'y prêtaient volontiers. Malgré la prohibition que leur en fait la loi qu'elle professent.

=sultanes avec toutes les femmes des grands. Le coran défend à ce sexe de se faire voir des hommes. Ce qui fait que les femmes dont l'état les oblige de sortir pour aller aux bains publiques pour autres besoins, sont toutes couvertes. N'ayant qu'un œil de découvert pour se voir conduire.

1- Elles se font singulièrement. Elles sont toutes de cire jaune. On a deux longs morceaux de bois de la même longueur percés à chaque bous lesquels on en chasse l'un dans l'autre et on en fait une croix, qu'on attache par le milieu à un solivot du plancher; ensuite. Après que cette croix est à la hauteur à peu près de la ceinture. On a une ficelle bien fine et des plus fortes qu'on attache à un bout de la croix; et après on enfile les mèches de coton, qu'on a déjà préparées à cette ficelle relativement à la longueur du bois. Après on enfile encore la ficelle au trou du morceau de bois qui suit et on met après le même nombre de mèches. On en fait de même aux quatre parties de la croix et aux quatre intervalles des bois ensuite l'on a deux marmites pleines de cire où l'on mêle un peu d'huiles l'une toujours sur le feu. Et l'autre dont on se sert, et après qu'on égalisé la distance d'une mèche à l'autre en tournant la croix. De manière que les chandelles grossissent sans qu'on s'en aperçoive presque. On a soin, bien entendu, de placer la marmite sur les mèches afin que la cire qui tombe y entre dedans et de la changer lorsque la cire soit trop froide. Il m'est arrivé de cette manière de faire 400 grosses chandelles dans 8 ou 9 heures de tems.

après. Tous les spectateurs se mettent à manger de ce qu'on a soin de prépare pendant qu'on fait toutes ces cérémonies. Le repas fini, on transporte le cadavre dans l'endroit qui lui est préparé. C'est une fosse dans la terre. Assez profonde. Qu'on a soin de bien induire avec de l'eau qu'on mêle à la terre et de laisser un bord à certaine hauteur. Afin de couvrir ce corps avec des pierres. ce qu'on fait avec tant de soin et d'exactitude que le moindre petit grain de terre ne peut tomber sur le défunt. On a soin. Auparavant de fermer ainsi cette fosse. De mettre sous l tête de celui qu'elle renferme une lettre de recommandation adressée à mohamet leur prophète. Tout cela se fait sans interruption. de sorte qu'un homme aussitôt mort. il est enterré et oublié dans moins de cinq heures.

Je prenais beaucoup de plaisir lorsque je me trouvais dans les cercles ou sociétés des personnes parmi lesquelles je vivais. Comme ils ne connaissent aucunement l'usage des chaises. ils s'assoyent partout où ils se rencontrent, même au milieu des rues. Là. en fumant leur pipes, qu'ils se font passer de l'un à l'autre. il n'ont d'autre conversation que sur leurs chevaux et sur des objets qui annoncent leur ineptie. Si quelquefois je demandais à quelqu'un d'eux quel age il avait ou combien il y avait de tems qu'il était marié. il me répondait toujours qu'il naquit pendant le règne d'un tel Bey ou pendant qu'on batissait telle maison et qu'il se maria dans le tems de telle ou telle époque. ce qui achevait de me convaincre entièrement de leur ignorance. Si pendant que nous étions à parler. L'imen[1] venait à chanter. tout le

1 - c'est la personne chargée d'inviter par sa voix, étant en haut d'une tour, tout le peuple à faire sa prière. Ce qu'il dit signifie à peu prés que dieu et grand. Qu'il est parfait et qu'après lui c'est leur prophète. Il répète cela plusieurs fois. Les heures des=

monde se levait et faisait sa prière. faisant face du côté où se lève le soleil. si toutefois ils y étaient préparés; car pour pouvoir adresser leurs prières à dieu, il faut qu'ils se lavent les pieds. les mains et le visage. et tout le corps s'ils ont joui des plaisirs de la chair ou qu'ils se croient coupables de quelque faute grave pendant l'intervalle d'une prière, j'ai si bien appris les paroles et les mouvements du corps dont ils se servent qu'il m'est très facile de les contrefaire. Et j'ai amusé souvent en France les sociétés où j'étais en faisant ces simagrées.

On verra facilement par tout ce que je viens de dire que je jouissais d'une entière liberté qui me facilitait. Vu l'estime générale dont je jouissais aussi. A m'introduire partout, et même auprès des personnes de sexes différent au mien. Ce fut aussi ce qui faillit faire ma perte. Car, pouvant faire des sacrifices, je ne trouvais aucun obstacle dans tout ce que le libertinage et la volupté me faisait entreprendre. Je me livrai entièrement à ces passions et avec si peu de retenue, malgré que je connusse le danger où je me mettais et les exemples que j'avais déjà vus que mon maître en fut bientôt instruit; mais. Comme heureusement c'était dans le tems que je jouissais de sa plus grande amitié, je ne reçus de sa part que des représentations sans menaces, qui me faisaient assez connaître que si ce n'eût été que pour lui seul, peu lui aurait importé que je me fuse diverti; mais que le scandale et le respect humain pouvaient le porter à des excès dont il se repentirait (disait-il) toute sa vie.

=prières sont el subah une heure avant le jour. et jajare aux crépuscules du matin. el dore à une heure après midi. et lazar à quatre heures après midi. el magreb au soleil couchant. et finalement el léchia une heure et demi après le coucher du soleil.

pour que le mariage ne soit par haram[1] que les futurs époux ne se soient jamais vus. Après s'être assuré de cela, le jeune homme s'accorde avec celui qui doit être son beau père sur la somme qu'il doit lui donner pour lui livrer sa fille (car dans ce pays-là il faut acheter celle qu'on veut avoir pour femme) et, l'accord fait relativement à leurs état et moyens. Ils vont ensemble, accompagnés de leur amis chez le kadi et ils acraon et fcheta[2] cette cérémonie faite ils fixent le jour des noces et la veille que le fiancé doit avoir l'entrée chez l'arosse[3], celle-ci se peint les mains avec de la la henna[4] le lendemain on prépare le mangé pour les invités qui n'est pas bien splendide. Les hommes sont dans un appartement séparé de celui des femmes, qui ne quittent la fiancée qu'au moment de l'entrée du fiancé et qui ne cessent de faire des cris de joie jusques alors. Enfin, L'heure arrivée, L'époux va pour consumer le mariage; il entre dans l'appartement de a future qu'il trouve seule et assise sur un lit préparé et couverte d'un mouchoir de soie

---

1 - haram signifie quelque chose de proscrit du ciel.

2 - c'est la manière de bénir les mariages. Les personnes intéressées, le kadi et tous les spectateurs joignant les mains ouvertes et les approchant de leur visage font une prière à voix basse en levant les yeux au ciel et la terminent en passant leurs mains ainsi jointes sur leur barbe, ce qui signifie l'engagement et de l'himen et de ses conventions.

3 - c'est la fiancée. Elle n'a jamais guère plus de 13 à 14 ans.

4 - c'est une espèce de plante dont les feuilles étant sèches et moulues. On en fait une pâte avec laquelle on s'enveloppe les mains le soir avant de se coucher et le lendemain, après se les être lavées, on les trouve teintes d'un beau rouge mélangé de jaune qui se conserve pendant longtemps. Les maures s'en servent aussi pour teindre le dos et les jambes de leurs chevaux et aussi pour les plaies. Disant que cela les endurcit.

qui lui cache le visage. Et, la consumation faite, le père entre et le gendre sort aussitôt et va rejoindre les convives. Pour lors cet homme dépouille sa fille, s'empare de sa chemise qui fait sa consolation et l'envoie, après l'avoir présentée aux invités, chez tous ses amis pour prouver et aux uns et aux autres la pudeur de son enfants. C'est sur ce que représente cette chemise qu'on se conforme pour les divertissements de la noce, qui sont bien monotones à un chrétien. Ce sont des danses, à l'usage du pays, qui annoncent leurs grossièretés et qui me forçaient pour lors à me retirer lorsque je m'y trouvais. Après ces fête finies, l'époux conduit sa femme chez le père de la fille, mais aux dépens du gendre), où il est obligé de la nourrir et entretenir et à ne point manquer ou à l'un ou à l'autre. La femme est en droit d'aller trouver le kadi et faire rompre ses engagements; on voit cela très souvent. Ce qui parait horrible à un chrétien surtout lorsqu'il y a des enfants de ces mariages. Il faut pour lors, lorsque les époux se séparent, que chacun d'eux s'empare des enfants, comme si elle n'en avait jamais eu, elle préférerait plutôt la mort mais non, les femmes maures s'en séparent (à quelques exceptions près) sans ressentir peut-être la moindre douleur. J'ai vu en grand nombre ces spectacles remplis d'horreur.

Je me suis trouvé quelquefois aussi à la mort de quelques arabes. Aussitôt qu'un homme et trépassé. Tous ses parents et amis s'assemblent et font des cris épouvantables qui touchent le cœur de l'homme sensible. Après on lave le défunt avec de l'eau parfumée par tout le corps, commençant par les pieds et ne pouvant plus toucher la partie déjà lavée. Lorsqu'on est à la tête on la tient par la flotte de cheveux que tous les maures ont sur le crâne. Cela fini, on l'enveloppe dans un linge neuf où il est cousu. Et

qui permet à peine que les plaines les plus immédiates des villes soient habitées et cultivées. Il ne se passait aucune année qu'il ne se fit quelqu'une de ces maraudes, les unes considérables et les autres bien peu et quelquefois sans effet, et c'était là où j'avais le plus de peine. Mais ce qui me consolait c'était leur peu de durée et toujours un grand profit qui m'en revenait. J'en ai vu qui m'ont porté jusqu'à 50 sequins, tant des 10 que me donnait ordinairement mon maître que de ce que me donnaient les grands de la cour, qui, bien souvent les vivres leur manquant, (faisant peu de provisions et ne sachant point la durée de ces gazias) avaient recours à moi, qui ne leur en refusais: ce qui faisait qu'ils me récompensaient généreusement.

Aventure du Harem

J'étais enfin dans la troisième année de mon esclavitude. Mon père m'écrivait très souvent et me faisait toujours espérer d'être bientôt racheté. M'assurant dans sa dernière lettre que, si ce que lui avait écrit le révérend père provincial des trinitaires de notre province ne réussissaient pas, il ferait le sacrifice de 3,000 livres qu'il fallait pour y parvenir. Cette espérance me consolait. Je désirais effectivement d'être racheté d'autant plus que je connaissais les mœurs et la politique du pays, plus je voyais que mon sort, quoique heureux, n'avait rien de stable. Mon maître n'était guère plus assuré dans son despote et sa magnificence que moi. Il dépendait entièrement du pouvoir et du caprice du Dey d'Alger. Qui peut lui faire trancher la tête à son gré. Son prédécesseur, le Bey agikalil fut empoisonné d'ordre du Dey d'Alger. La mort pouvait aussi d'elle-même me priver de ce bienfaiteur. De plus je pouvais perdre par la suite son amitié, soit par un effet de son inconstance. Soit par la médisance de quelques ennemis qu'on ne peut jamais éviter d'avoir, où soit enfin par une antipathie que le tems aurait pu faire naître. Et pour lors j'avais à craindre qu'il ne me dépouillât et ne me confondît parmi les esclaves les plus malheureux. Enfin toutes ces réflexions me faisaient désirer de m'éloigner d'un bien qui n'était point assuré et duquel d'ailleurs je savais si mal profiter. Dans d'autres moments aussi j'oubliais entièrement que j'étais un esclave et je me livrais à quelques satisfactions que je trouvais dans mon sort. Comme j'étais connu presque de toute la ville et que j'avais pour amis plusieurs jeunes gens comme il faut, il m'invitais bien souvent à leurs parties de plaisir, quelque fois à des noces. Elles se font singulièrement. Il faut premièrement.

allions donner des gazia[1]. Lorsque quelque province manquait au Bey soit par quelque désobéissance aux demandes qu'il ne cesse de leur faire, ou lorsqu'il se lève quelque querelle entre elles (ce qui arrive souvent) qui les oblige à s'égorger. Il se tait pendant une certaine espace de tems et feint de les pardonner; mais, après que tout paraît oublié, il ramasse sept à huit mille hommes et part en secret, marchant jour et nuit, pour les dépouiller de tout ce qu'elles ont[2].

Je me trouvais toujours partout et à côté de mon maître, qui ne cessait point de tirer des coups de fusil. Il était toujours à la tête de son armée lorsqu'il entrait dans les douars et j'étais quelquefois spectateur des choses qui me faisaient horreur. Nous fîmes une fois une de ces gazias à plus de 200 lieues de mascara, du côté di midi, dans un pays qui n'avait jamais voulu reconnaître de souverain. L'armée du Bey était composée d'environ 15.000 hommes et elle réussit très bien malgré la résistance qu'elle trouva, qui lui fût perdre une trentaine de personnes, parmi lesquelles il y en avait cinq ou six de distinction. Nous prîmes 14 ou 15 douars, et, ce qui paraîtra exorbitant et incroyable malgré la vérité, 67.000 bêtes à laine, 5.000 chameaux, 6530 mules, 720 bœufs ou vaches. Quand aux effets des tentes, ils appartiennent à la troupe, et c'est

1 - Je ne peux les appeler que maraude ou vol.

2 - Chaque fois que le Bey marche pour quelque exécution semblable, il fait écrire à chaque province de lui tant d'hommes selon leur force, sans dire l'usage qu'il en veut faire, car ces hommes quelquefois ne savent où ils vont qu'au moment qu'il faut combattre. Tout le monde est soldat dans ce pays-là et un jeune homme de 16 ans doit avoir son cheval et son fusil et être toujours prêt à marcher.

attrape qui peut. On prit aussi une soixantaine de personnes, presque tout femmes. Le bey, une fois sa prise faite, est bientôt de retour chez lui. Il vend tout de suite à chaque province des hommes desquelles son armée est composée, tous les bestiaux et à un bas prix, leur faisant crédit jusques au tems du camp: alors les hommes de chaque province se réunissent et conduisent leur contingent, et se le partagent en arrivant chez eux selon la fortune d'un chacun. Comme ils gagnent toujours. J'ai vu le bey, pour mieux surprendre le pays qu'il avait envie d'aller voler, leur faire écrire de lui fournir tant d'hommes et de se trouver un tel jour dans un tel endroit, et, pendant qu'on l'attendait au poste indiqué. Il était dans leurs tentes et à ne leur rien laisser et à leur enlever jusque leurs femmes et leurs enfants. Quelquefois aussi ils n'étaient pas sa dupe surtout lorsqu'ils savaient qu'ils lui avaient manqué. Ses ordres servaient pour les délivrer de ses mains et les faire retirer dans des montagnes inaccessibles à une armée jusques à ce qu'ils eussent obtenu leur pardon, ce qu'ils n'obtenaient jamais sans payer des dommages et intérêts considérables. Quelquefois aussi il feignait une partie de chasse pour mieux surprendre ses victimes.

Ce fut dans cette gazia que je vis les plus belles plaines que j'esse encore vu. Lorsqu'on s'en trouvait au milieu, on semblait être en pleine mer, mais c'était dommage qu'on n'y vît aucun douar et qu'elles fussent inhabitées et incultes malgré la fertilité qu'elles annoncent. Je voulus demander pourquoi un aussi beau pays était ainsi abandonné. On me répondit qu'il n'y avait pas d'eau, ce qui me prouva que les maures ignoraient l'usage de faire des puits et des citernes. Ils n'usent en effet que de l'eau de rivière. Je n'attribuai point cependant à cette difficulté si ce beau pays était inhabité, mais seulement à l'inpopulation

cette tente que pour la garnir, à moins que des affaires de conséquence m'y eussent appelé. Le bey, aussitôt qu'il y fut, fit retirer tous ses pages, en en chargeant un de me dire d'aller lui parler. J'obéis et fus étonné en l'approchant lorsqu'il m'ordonna d'aller chercher une bouteille de liqueur pour chacun[1]. De retour que je fus, et voyant que je pouvais lui parler sans rien craindre de notre différent de la veille, je lui dis qu'il venait de faire une action qui ne cadrait guère avec son rang et avec l'humanité et le caractère que je lui avais connu jusques à ce moment et qu'il avait rempli d'effroi et d'étonnement toute sa cour. Oui (me dit-il) et personne ne m'en a empêché- qui pouvait le parler, (Lui répondis-je). J'ai voulu le faire lorsque tu m'as demandé les pistolets et tu m'as eu bientôt coupé la parole! –eh bien (me dit-il). Cela devait être ainsi, et puis d'ailleurs (continua-t-il) les propos qu'il a tenu méritaient que je me vengeasse. Voilà tout ce que me répondit ce sultan sur son crime. Il paraissait cependant se repentir de l'avoir commis. Ce qui le manifeste après, ce fut les grosses sommes seulement dit que depuis que le Bey régnait, les emplois ne se donnaient plus aux gens de mérite et qui les avaient gagnés, et ce fut ce qui lui coutra la vie.

Quelques jours après cet événement malheureux, nous rentrâmes à mascara. Là j'avais quelques monnaies à moi et jouissais d'une tranquillité qui me permettait d'écrire à mes parents, qui n'omettaient rien des moyens qui pouvaient les faire parvenir à me racheter; et, comme j'avais été beaucoup recommandé à Alger auprès du consul de France et du chef du couvent des frères trinitaires. J'écrivis aussi à ces messieurs forts souvent. Ainsi qu'à un

1 -Il fallait que j'eusse toujours de la liqueur et du vin muscat de Lunel ou de frontignan, étant les seules boisons du bey.

horloger avec qui je m'étais lié et par le canal duquel je m'étais fait à mascara une petite bibliothèque assez curieuse dans un pays comme celui-là. Les maures qui m'entouraient étaient étonnés de voir (selon eux) tant de livres. Ils n'en avaient en effet jamais tant vu. C'est un peuple si ignorant qu'il n'y a peut-être pas dans mascara, qui est une ville assez grande, 100 personnes sachent lire, et cette ignorance donne une singulière vénération à ceux qui connaissent seulement une lettre du coran; ils sont regardés du menu peuple comme des saints. Ils ne tardèrent pas à me croire un homme capable de les seconder dans leurs superstitions, de sorte qu'il venaient me prier à tout moment de leur faire des écrits qui les fissent aimer ou d'une femme ou de leur maître ou qui les rendissent capables de braver les coups de fusil. Je m'amusais de toutes ces demandes, qui me faisaient si bien connaître leur ineptie; mais ce qui m'étonnait le plus c'était de voir que parmi ces ignares, il se trouvait quelquefois des gens très comme il faut et occupant de grands emplois, qui venaient me tenir de pareils propos.

Pendant les huit mois que nous restions dans la ville, mon maître faisait beaucoup de parties, soit de chasse au sanglier[1] ou soit de course à cheval, accompagné de toute sa cour. Il exigeait toujours que je l'accompagnasse aussi, et j'étais déjà si bien au fait de monter ces chevaux arabes que je courais ventre à terre, un fusil à la main et faisant feu, avec presque aussi de faciliter que les maures, qui sont très adroits dans ces sortes d'exercices. Quelquefois nous

1 - Il ne fait point d'autre chasse, quoique les mahométans n'en mangent point. Ils les laissent à l'endroit où ils les tuent, après leur avoir arraché les dents.

cour sans que ni l'un ni l'autre fût ému de la moindre chose, par un effet encore de leur préjugés; et je crois qu'il n'y avait que moi et les pages chrétiens dans tout le camp qui eussent horreur de voir verser tant de sang.

Nous étions enfin presque à la veille de finir ce camp et de rentrer en ville lorsque mon maître, par un effet de sa grande vivacité, se rendit coupable d'un crime, que je ne pouvais lui pardonner, malgré toutes les horreurs que je lui avais déjà vu commettre. Nous étions en marche. Celui-ci étant arrivé à l'endroit où devait se placer le camp, fit planter à petite tente de route pour se mettre à l'abri du soleil en attendant que l'outac fût garni. J'étais pour lors avec mon convoi, et je vis venir à nous un homme à cheval ventre à terre. Je ne sus que penser en l'apercevant. Il arriva enfin droit à moi et me dit de venir tout de suite parler au bey. Je piquai aussitôt mon cheval, qui, étant meilleur que celui du messager, l'eut bientôt devancé. J'arrivai devant le sultan, qui me dit en l'approchant: « andate cercarmi due pistole carrigate con due bale ognuno ». Je fus surpris de ce qu'il m'ordonnait, et, lui ayant demandé ce qu'il voulait faire, il me répondit avec un ton de colère inexprimable: « v'ho detto di porlarmi du pistole ». Tout me surprenait davantage et me glaçait d'effroi. Nous avions eu de grandes raisons la veille, où j'avais été obligé (contre ma coutume) de lui céder (c'étais pour avoir donné environ deux ou trois livres de poudre à tirer à un jeune homme de ceux qui portent ses armes en route). Je craignais presque que les pistoles ne fussent pour moi, la manière avec lesquels ils me les demandait (ayant toujours accoutumé à me tutoyer et ne l'ayant point fait) achevait de m'accabler de frayeur, néanmoins il fallut obéir, mais en tremblant. Je retournai donc sur mes pas et, ayant joint mon convoi qui venait lentement. Je fis décharger les coffres où je savais qu'il y

avait des pistolets. J'en sortis deux et les chargeai comme on me les avait recommandé. Je les portai, toujours glacé d'effroi, au Bey qui en les mettant dans les mains me dit de me retirer – ce que je fis; et m'aitant aperçu par la manière qu'il me renvoya que je n'avais rien à craindre pour moi, je fus dans la grande tente attendre l'arrivée du convoi, ou j'attendais être spectateur de ce qui allait arriver. Toute la cour qui entourait le sultan n'était pas moins surprise que je l'avais été lorsqu'il me demanda ces armes et attendait quel serait l'effet funeste qu'elles allaient produire. Je quittais mes bottes lorsque j'entendais plusieurs voix qui appelaient Ada belahége (c'était un homme très comme il faut et que je connaissais particulièrement); comme il suivait toujours le bey, il n'était malheureusement guère loin et eut bientôt répondu. Il s'approche de lui, et aussitôt le sultan lui lâche un coup de pistolet qui, ne l'ayant pas atteint, l'obligea à tirer le second, qui fit tomber ce malheureux sans vie. Quelle fut ma surprise ainsi que celle de tout le monde en voyant cet horrible spectacle! Je ne pouvais concevoir comment le Bey avait pu se résoudre à souiller ses mais de la mort d'un de ses sujets (serait-il encore plus coupable). Je le crus pour lors, d'après cet exemple et un nombre infini d'autres, capable de toute barbarie. Personne n'avait osé lui rien dire ni représenter en le voyant si furieux: pas même son frère ni ses favoris les plus intimes.

Le convoi arrive enfin, et au sitôt que tout fût prêt, je fus dire à mon maître qu'il pouvait entrer dans sa tente quand il voudrait. Il y vint en effet, mais avec un air coléreux qui ne lui avait pas permis de dire une seule parole depuis la mort de ce malheureux. L'heure du dîner arrive; je le fis apporter; mais il ne voulut pas manger, et, après que ceux qui mangent d'ordinaire avec lui eurent fini leur repas, il se retira dans sa guérison. Je n'entrais jamais dans

hommes de distinction à m'employer lorsqu'ils voulaient obtenir quelque faveur.

Ce fut pendant ce camp que, connaissant déjà assez bien la langue arabe, je pus aussi connaître les mœurs du pays. Chaque jour m'offrait des moyens d'y parvenir. Je voyais mon maître, qui n'avait jamais connu le droit et qui était aussi bon jurisconsulte que le plus inapte de ses sujets, juger des procès très embrouillés et qui auraient embarrassé l'homme le plus éclairé; mais lui, rendait ses jugements à la minute et dieu sait comment. Néanmoins, lorsque quelques plaintes ou différent l'embarrassaient (c'étais quelquefois ce qui était le plus facile à juger), il renvoyait les parties devant le kadi[1]. La voix duquel est regardée comme celle de leur prophète. Il ne se passait aucun jour que je ne visse couper la tête, donner des coups de bâton, mettre de chaînes ou mille autres horreurs. S'il se trouvait dans un douar un homme qu'on sût qu'il eût beaucoup d'argent, le kaid tachait de le molester au point de se faire manquer et saisissait cette occasion, le faisait rosser de coups de bâton et lui faisait donner une grosse somme, ensuite il venait trouver le bey, partageait avec lui et lui faisait mille fausses plaintes contre cet homme. Il finissait par lui dire qu'il était opulent et qu'il pouvait le faire contribuer. Ce sultan ne manquait pas; avide d'argent comme le sont tous les turcs; il envoyait chercher cet homme. Le faisait mettre à la chaîne et lui faisait donner tous les jours des coups jusqu'à ce qu'il avait donné la somme qu'il lui fixait. Je voyais comment se punissait l'homicide: lorsqu'un homme s'était rendu coupable de ce crime, il ne fuyait point: il restait tranquille dans sa tente pendant que les parents du défunt venaient porter leurs plaintes au bey. Celui-ci envoyait

1- homme de loi, et qui bénit les mariages.

chercher le meurtrier, qui, après lui avoir demandé pourquoi il avait tué cet homme, répondait seulement que c'était son destin, que le ciel l'avait écrit ainsi[1]. Le sultan demandait pour lors aux plaignants quel parti ils prétendaient prendre (ils peuvent demander de l'argent ou la mort du coupable, ce qui dépend absolument d'eux). S'ils consentent à un arrangement, le Bey s'en réjouit, parce qu'il a la moitié de la somme. Si au contraire ils ne veulent pas, ils s'emparent de l'homicide et le plus proche du défunt lui donne la mort à 20 pas de la tente et en présence du sultan, qui ne peut point l'en empêcher malgré son despote, à moins de vouloir manquer aux lois. Je vis aussi pendant ce camp trancher la tête à sept personnes dans moins de dix minutes pour avoir volé dans un douar quelques moutons. Les chauz, après l'arrêt du bey, ne firent que tirer leur cimetière et, prenant ces malheureux par la flotte de cheveux que tous les musulmans ont sur la tête, un seul coup leur suffit pour les faire tomber. Ils firent de même de tous les sept et le tout devant le sultan. Ensuite ils essuyèrent leurs atagans aux vêtements des cadavres et, les ayant mis dans leur fourreau, ils reparurent devant le Bey aussi tranquille que s'ils étaient venus de fumer une pipe. Toutes ces justices s'exécutent devant le Bey et toute sa

1 - les maures sont captivés par divers préjugés erronés. Ils croient fermement à la prédestination, de manière qu'ils attribuent au ciel toutes leurs actions. S'ils se rendent coupables de quelque crime, ils ne fuient point, parce que (disent-ils) si dieu a écrit que je sois puni, je le serai où que j'aille. S'il ne l'a pas écrit, je ne risque rien. On connaît en eux ce préjugé lorsqu'ils demandent quelque chose à leur souverain ou supérieur; ils se servent de cette expression lateroubi menec, qui signifie: si dieu les souverains ne se reprochent point les horreurs qu'ils commettent et que rien ne flétrit la réputation.

Voici encore une fois le tems du camp arrivé. J'étais pour lors entièrement au fait de tout ce qu'il y avait à faire et je m'en acquittais assez bien, mais non sans beaucoup de peine. Je n'avais aucun moment à moi. Les chaleurs excessives jointes à tant de travail faisaient que j'y étais presque toujours malade. Je dirigeais néanmoins tout d'une manière qui étonnait mon maître. Il m'a dit lui-même que jamais ni sa table[1], ni ses tentes ni ses affaires n'avaient été si bien dirigées. Pendant ce tems je commis une faute par un trait de vivacité qui, au lieu de me faire perdre l'estime du bey, servit à me donner des preuves d'une plus grande... Etant en route à la tête de mon convoi, je m'aperçus que par derrière une mule venait de tomber et qu'elle ne pouvait se relever à cause de sa grande charge. J'appelai aussitôt les domestiques pour décharger cet animal afin qu'il se relevât, et personne ne s'empressait à coup de bâton sur le premier que je rencontrai, lequel fut tellement piqué qu'il me dit que jamais chrétien n'avait frappé maure, que c'était et contre les lois et contre les droits

1- Ils mangent singulièrement. Ils s'assoient à terre (sur les tapis) et y forment un cercle. Leur table et élevée d'environ un pied. C'est un rond de cuivre blanchi au bord et autour duquel le pain est coupé par tranche; leur serviette est une pièce d'indienne qui fait le tour de la table et que chacun met devant soi. On ne sert qu'un plat après l'autre (les plats sont aussi de cuivre) où chacun met les doigts. Ils ne se servent pour manger que de cuillers de bois. Le repas fini, et toujours en silence, les pages lavent les mains à tout le monde avec du savon mou, et le café arrive en même temps (ils le prennent toujours pur et sans sucre). Après tout cela ceux qui ont mangé avec le Bey se retirent après lui avoir baisé la main. Leur table n'est jamais composée de plus de six ou sept personnes.

qu'ils avaient sur des gens aussi méprisables que nous[1]. A peine eut-il fini que, ses mauvaises raisons m'ayant rendu furieux, je sortis mon cimetère et lui en donnai un coup qui l'atteignit sur l'épaule droite et qui fut plus considérable que je ne l'avais cru[2]. Voilà un homme qui faisait l'estropié, et qui se fit monter sur une mule. Son chef me disait fort doucement que j'avais mal fait de le frapper avec l'atagan, qu'il valait mieux lui ordonner à lui de lui donner 100 coups de bâton, et que cela pourrait déplaire à mon maître. J'étais encore dans la colère et je n'écoutais personne; mais, Un moment après, ayant fait des réflexions, je me blâmais de n'avoir pu vaincre ma vivacité et je ne savais comment le Bey prendrait cet événement. Nous campâmes enfin, et aussitôt que l'outac fut garni et que ce dernier y fut entré, le blessé se fit porter par deux de ses camarades devant lui et, en lui montrant sa blessure, lui fit sa plainte. Mon maître fut un moment en silence, après lequel il me dit seulement que ce n'étais pas ainsi qu'on traitait les mahométans, et le consola en lui donnant cinq sequins.

Aussitôt que nous fûmes en particulier, il voulut me faire de grands reproches, mais lui ayant conté le fait et me prévalant du pouvoir qu'il m'avait donné sue ses domestiques, il conclut enfin que j'avais raison. Toute sa cour avait été si tranquille en recevant cette plainte qui manifestait (selon elle) un crime impardonnable à un chrétien; ce qui acheva de la convaincre de l'empire que j'avais sur son esprit et à obliger bien souvent plusieurs

1 - les mahométans regardent les chrétiens intérieurement comme des chiens.

2 - j'avais toujours en route le cimetère à fourreau d'or de mon maître et un bâton à la main pour frapper les mules.

malheureux si je voulais me servir des prérogatives que j'avais sur l'esprit du bey. Je voyais celui-ci si furieux que je n'osais lui parler, ce qui me détermina d'aller trouver le grand calif son frère et plusieurs des principaux de sa cour, afin de les prier de sauver cet esclave, leur disant que joindrais mes prières aux leurs et que peut-être on pourrait y réussir. Ils firent effectivement et les uns et les autres leur possible auprès du Bey sur lequel j'avais les yeux attachés, et m'étant aperçu qu'il ne savait s'il se rétracterait ou non de son horrible sentence, je me jetai à ses pieds devant toute sa cour en les baisant; je le priai en langue italienne et avec des termes les plus propres à réussir, de m'accorder, ainsi qu'à tous ceux qui avaient bien voulu l'en prier, la grâce de cet esclave coupable, ajoutant que c'était la première que je lui demandais et que j'osais espérer de ses bontés qu'il voudrait bien me l'accorder. Le Bey fut un moment en silence, et, après m'avoir dit: " c'est ton pays, je le vois bien ", il ordonna, à ma grande satisfaction qu'on donnât à ce malheureux ainsi qu'à sa complice 200 coups de bâton à chacun[1], desquels ils furent bientôt guéris. Cette grâce fut un triomphe pour moi et me donna des plus grandes preuves, ainsi qu'à tous les spectateurs, De l'estime que mon maître voulait bien m'accorder.

Quelques jours après cette époque, Nous partîmes pour aller à Oran donner une fonction (c'est le terme usité). C'est amusement que prend ordinairement le Bey tous les

1 - les lois arabes portent que tout chrétien qui est trouvé avec une femme mahométane, doit être pendu et sa complice mise vivante dans un sac et jeté ainsi à la mer: ce qui prouve comme cette nation regarde les chrétiens.

ans et dans le tems du Ramadan[1] d'aller faire tuer ou blesser quelqu'un de ses gens par la coups de canon ou mousquet qui partent de cette ville[2]. Quand à lui, il ne s'approche jamais de leur portée. Il se met sur une éminence pour être spectateur de la scène qui fait indubitablement gagner le ciel aux mahométans et aux chrétiens sans doute. Selon leur foi respective. Nous revînmes au bout de trois ayant eu onze morts (et par conséquent saints) et une autre fois autant de blessés.

Le mois d'avril étant arrivé, je partis avec le calif pour aller conduire tout ce qui émane de la contribution que mon maître paye tous les six mois au régent d'Alger, et je me comportai si bien dans ce voyage, qui était le premier que je faisais avec ce calif, que celui-ci à notre retour lui rendit un compte bien à mon avantage: ce qui l'obligea à ne mettre plus de borne dans son amitié. Il m'en donnait des preuves à chaque moment. Je devins bientôt le dépositaire de sa cave (c'était selon lui la plus grande preuve d'amitié) et il ne fit plus de difficulté que je busse avec lui, voyant que je n'abusai point de cette familiarité qui, au contraire, par reconnaissance, m'attachait encore plus à ses intérêts. Nous avions bien quelquefois de petites querelles; mais j'avais au si bien étudier son humeur et son caractère que je savais lui céder et avoir raison quand il le fallait.

1 - C'est leur carême, qui dure une lune, pendant laquelle ils ne mangent que la nuit, de sorte que depuis le crépuscule du matin jusqu' après le coucher du soleil, Ils ne peuvent ni manger, ni boire, ni fumer du tabac, ni s'approcher de leur femme. Ce carême est suivi si ponctuellement qu'il y a des personnes qui préfèrent la mort plutôt que de le rompre.

2 -C'est une ville et port à 14 lieues de Mascara. Appartenant aux espagnols.

(c'était sa langue) de tout ce qui en était susceptible. Je confrontai celui de l'argent avec le premier écrivain: il se trouva juste, et, comme c'était l'article le plus important, à examiner, nous ne nous arrêtâmes guère sur les autres à moins sur celui des montres et des armes, qui sont toutes de prix[1].

Me voilà enfin porteur dans ma ceinture d'une trentaine de clefs que je ne quittais jamais, et placé à un poste qui ne m'était pas encore entièrement connu. Mon maître, le soir, étant seul, me détailla tout ce que j'avais à faire (du moins il le croyait, car il ne connaissait point lui-même tout ce qui dépend de la place de kasnadar). Il me recommanda surtout d'avoir l'œil sur les domestiques, que c'étaient des gens (disait-il) qui ne cherchaient qu'à le voler, que j'eusse soin de la conduite des pages, de les châtier quand ils le méritaient, et qu'enfin je me rendisse digne par l'intérêt que je devais prendre de ses affaires, des bontés qu'il avait et qu'il aurait pour moi. Heureusement je n'ai jamais été fainéant (et c'est aussi la seule bonne qualité que j'aye eu). Ainsi voyant qu'il dépendait de mon travail et de mon exactitude d'adoucir les fers où les sort m'avait conduit, je m'y livrai entièrement et réussis si bien que je m'acquittai pendant le restant du camp de tous les devoirs qui émanaient de ma place et vis avec satisfaction que mon maître était très content:

Nous retournâmes à mascara, où je gagnai de plus en plus l'estime du bey, qui, en peu de tems, me confia ce qu'il avait de plus secret. Je faisais en même tems des plus

---

1 - jamais on n'a vu d'armes si belles que dans ce pays. Le diamant, L'or, l'argent, le corail, la nacre, tout est prodigué. Le Bey a des fusils dont la valeur doit être si exorbitante que je n'oserais la fixer.

grands progrès dans la langue, qui me facilitèrent à avoir des entretiens avec les grands de la cour et m'attirèrent par là leur estime, je faisais aussi, tant qu'il m'était possible, du bien aux esclaves chrétiens destinés aux travaux de mon maître, lesquels ne tardèrent pas de m'appeler leur protecteur. Quant à ceux de la coupe, c'est-à-dire les pages, ils se félicitaient à tout moment de m'avoir pour leur chef. Je savais, en me faisait aimer d'eux, les tenir dans leurs devoirs et me faire respecter, sans trop me prévaloir de mon autorité. Tous les autres domestiques en étaient de même. Je ne refusai rien à personne de ce qu'on me demandait toutes les fois que je pouvais le faire. Enfin je débutai si bien dans ma nouvelle place que je m'étais attiré une estime générale qui faisait dire aux maures que c'étais dommage que je fusse chrétien, car sans cela je serais parfait. Le Bey disait souvent la même chose lorsque quelqu'un de sa cour lui faisait mon éloge.

Pendant ce tems il arriva un malheureux événement qui rendit le Bey furieux et qui servit pour ma gloire: Un chrétien meunier (il était auvergnat) fut trouvé dans son moulin, qui est attenant au sérail, avec une femme et dans un moment qui ne laissait pas à douter s'il était coupable. Cet esclave fut conduit par un eunuque, qui l'avait surpris dans son moulin, qui est attenant au sérail, avec une femme et dans un moment qui ne laissait pas à douter s'il était coupable. Cet esclave fut conduit par un eunuque, qui l'avait surpris dans son crime. Devant mon maître qui ne pouvait retenir sa colère contre ce malheureux et qui le condamna à être pendu par les pieds à la porte du porche, pour donner exemple aux autres esclaves. Et la femme à l'être également en public. Je frémis, ainsi que les pages, en entendant cet arrêt. Ces derniers me dirent pour lors qu'il n'y avait que moi qui pouvais sauver la vie à ce

L'entrée de l'oujak regardant toujours du côté où se lève le soleil. Celle de ceux qui sont employés pour les soins de ses chevaux et à droite, à environ 200 pas, de manière que de son lît de justice il les découvre tous. A gauche, à la même distance, est celle de gens chargés du soin des mules qui portent les équipages. A droite et à gauche, beaucoup plus en arrière, sont celles des grands de sa suite, et, plus en arrière encore, celles de toute la troupe à cheval. A environ 400 pas derrière la tente royale est celle d'une grandeur prodigieuse, appelée la komenia, qui est destinée pour mettre les vivres de tout le camp, qu'il se renouvellent tous les mois qu'on en fait la distribution: celle de la cuisine est sa droite, celle des gens chargés de placer et de conduire toutes les tentes du Bey est entre la komenia et celle des équipages dont est chargé le kasnadar; celles formant un petit douar de ceux qui ont soin des chameaux et des troupeaux qui suivent le camp sont derrière la komenia. Les trente tentes des turcs, qui composent environ 500 hommes, renferment toutes celles dont nous venons de parler et d'une distance égale de l'une à l'autre. Celle du chef de cette troupe est à 400 pas vis-à-vis de la tente royale. Le gueriton du chauz du Bey d'Alger qui accompagne le camp est à sa droite à très peu de distance. Voilà quel est l'emplacement d'un camp; qui offre une perspective charmante, principalement dans la nuit, lorsque tous les falots dont chaque tente est munie, sont allumés. Ce détail fera infailliblement bailler le lecteur, s'il prend la peine de le lire, mais il faut bien que j'écrive ce que j'ai vu pour augmenter ces mémoires, ne voulant point le faire par de fausses aventures ni embellissements qui leur feraient perdre leur authenticité; car ce n'est que par elle qu'ils peuvent intéresser quelqu'un.

La troupe d'Alger nous joignit enfin, et nous partîmes du habra pour parcourir le païs et provinces dépendant de notre camp, recouvrant partout l'argent que s'empressaient de porter ceux qui les commandaient. Nous marchions presque tous les jours, ce qui me procurait l'occasion de bien connaître ce païs, dont la beauté enchante et consterne en même tems. Nous passions des montagnes et des plaines superbes. Qui auraient été très fertiles; mais aussi on voyait à leur entour des terrains immenses remplis d'un très beau froment. Ces pauvres villages sont malheureux lorsque le camp les approche; ils sont si vexés de tout le monde qui le compose que c'est une horreur pour ceux qui connaissent ce qui s'y commet.

Il y avait déjà près de trois mois que nous étions dehors de mascara, lorsque le Bey envoya dire au renégat kasnadar de venir me remettre les clefs de tout ce qui était en son pouvoir, de me donner une connaissance exacte si tout était dans l'ordre et de prendre ses hardes et mener son cheval à la tente destinée aux jeunes gens qui portent ses armes[1] là où il devait rester. Mon maître ne m'avait encore prévenu de rien. Il me dit seulement pour lors de bien prendre garde si tout était en règle (ce qu'il m'était impossible de savoir au moins qu'en partie). Le renégat vînt donc auprès de moi et m'ouvrit tous les coffres. Nous comptâmes tous les sacs d'argent (ils étaient tous de peau rouge et cachetés avec de la cire. Ceux en or contenaient 1.000 sequins et ceux en argent 100) et me donna ensuite tous les divers états qu'il avait tenus en langue espagnole

1 - je l'ai vu plusieurs fois avant la fin du camp venir se soumettre à me demander bien de petites choses, que je ne lui ai jamais refusé malgré la mauvaise humeur qu'il avait eu contre moi.

kasnadar en est de même: il pourrait s'enrichir très facilement sans que son maître s'en aperçut. Je peux me flatter que lorsque je fus en place, je montrai tant d'exactitude et de délicatesse dans mes devoirs que je m'attirai non seulement l'amitié et la confiance de mon maître, mais encore celle de toute sa cour, et que je m'étais fait une réputation qui certainement m'eût été chère et m'eût comblé de satisfaction dans tout autre païs.

Nous partîmes donc de mascara pour aller au habra, là où devait nous joindre la troupe venant d'Alger et envoyée par le calif[1]. Je fus étonné lorsque le matin on m'amena un cheval tout harnaché avec une bride dont la garniture était en argent ainsi que les étriers. Une scelle dont le dessus était de velours violet brodé en or[2] et avec ordre de ne point suivre le bey, mais d'aller avec les équipages (nouvelle jalousie pour le renégat). De cette façon, ne montant à cheval qu'après mon maître, j'avais mieux l'occasion de voir comment se faisait son départ. Aussitôt qu'il eût demandé son cheval, chacun s'empressa à monter et à se joindre[3], et lorsqu'il a monté et qu'il se met à marcher, ceux qui portent les saindjak[4] marchent après lui, derrière; ceux-ci font de la musique, composée ordinairement de huit hautbois, d'autant de grosses caisses sourdes et de deux

1 - le pays dépendant du Bey de mascara a tous les ans quatre camps différents, le sien, celui du calif, celui de l'alcaïd flit et celui de l'alcaïd de miliana. Les sommes qu'ils ramassent sont pour le bey.

2 - d'après ce harnachement, qu'on juge quel doit être ceux des chevaux du bey.

3 - Ce détail est pour lorsqu'on part du camp et non pas de la ville. Que chacun le joint alors en route, à moins ses plus attachés qui ne le quittent jamais.

4 - Les drapeaux .Il y en a ordinairement sept

petites timbales à son clair, qui ne cessent de jouer pendant toute la route. Après suit toute la troupe à cheval, qui dans les plaines s'étend de droite et de gauche sans pouvoir précisé le sultan. Il n'y a que les grands de sa cour qui marchent à ses côtés. Personne ne marche devant lui que les gens qui portent ses armes, qui peuvent composer une soixantaine de personnes de la plus belle jeunesse du pays, que les pages chrétiens, tous montés sur de beaux chevaux, que ceux qui conduisent les chevaux de relais pour le bey, y en ayant toujours une douzaine tous sellés, marchant les uns après les autres et enfin que ceux chargés des vivres et de la petite tente de route. Tous ces derniers précèdent le maître d'environ 200 pas. Il n'y a des pages que celui qui est chargé de lui donner la pipe en chemin qui marche derrière lui. C'est-à-dire devant les drapeaux. C'est une place assez pénible, surtout lorsqu'on marche la nuit; elle est après celle du kasnadar.

Toute la troupe est à cheval, excepté celle qui à la solde, qui n'est composée que de turcs ou corolis[1]. Ces derniers sont tous à pied et vont comme ils veulent.

Une heure avant le départ du bey, il part un calif qui est chargé de l'emplacement du camp: il est suivi de tous ceux qui sont chargés de conduire les chameaux ou mules qui portent les tentes de toute l'armée, de sorte que lorsque ce sultan arrive, il trouve toutes les tentes placées. La vue du camp et assez agréable. Surtout lorsqu'il peut avoir beaucoup d'étendue et qu'on le voit d'un endroit plus éminent. Les quatre tentes du bey, c'est-à-dire l'oubak où tente royale, son gueriton de nuit. La hama ou magasin et le gueriton des pages, sont dans le milieu. Formant un carré,

1 - Ces corolis sont nés d'un turc et d'une femme maure. On compte parmi eux les renégats.

maître[1] et pour lors le faire réveiller par un page, sans crainte qu'il s'en trouve offensé. C'est lorsque les autres tentes aperçoivent de la lumière dans le guérit ton de nuit du Bey qu'elles se mettent toutes en mouvement. Il doit connaître l'or et l'argent faux qui roulent beaucoup dans le païs[2] parce qu'il est chargé de visiter, peser et compter tout celui qu'on a apporté à son maître soit au camp ou à la ville (ce qui n'est pas peu considérable, comme on peut le penser); il doit, en mettant l'argent dans les coffres, faire une différence de celui de chaque province afin de se mettre à l'abri de bien des inconvénients qui peuvent survenir tant par la faute des écrivains teneurs de livres que par la mauvaise foi des collecteurs chargés de la levée des impôts[3]. Il doit tenir un état exact de tous les effets qu'il distribue aux maures de l'ordre du Bey afin de se mettre à l'abri aussi d'aucun reproche de la part de ce dernier. Il doit, et sur toute chose, connaître tous les domestiques qui sont pour charger les équipages afin d'être sûr de leur fidélité. Il peut les changer quand il lui plaît et faire changer par son maître afin que l'or, l'argent et les effets

---

1 - le Bey se lève régulièrement dans toutes les saisons une heure et demie avant le jour, afin d'être habillé et lavé pour faire sa prière une demi-heure avant l'aurore. Aussitôt que celle-ci paraît, il entre dans la grande tente, où toute sa cour vient lui baiser la main.

2 - il m'est arrivé quelquefois de trouver dans l'argent qu'on m'apportait la moitié de faux et rendais suivant l'usage à celui qui le donnait.

3 - l'argent du camp ne se bouche que quand on est à la ville. Le Bey en porte toujours suffisamment pour subvenir à tout ce qu'il lui faut tant pour la paye de la troupe, qui se fait tous les mois, que pour ses domestiques, etc.

de prix soient en sûreté. Il doit enfin avoir l'œil et défendre que rien ne sorte des magasins que par son ordre.

Venons au pouvoir qu'il a auprès du bey. Il peut faire beaucoup de bien et de mal à bien des personnes. C'est par son canal que les emplois se donnent. Un homme qui sera assez riche pour pouvoir donner la somme qu'il fut pour parvenir à être gouverneur de province ou autre charge vient le trouver et lui dit de dire à son maître que s'il veut lui donner telle place, il lui donnera 300 ou 400 sequins. Le kasnadar ne manque pas. Ensuite un autre vient et susdit à cette somme: il le dit aussi. Et quelquefois il se trouve trois ou quatre prétendants à la même place. Eh bien que fait le bey. Il prend l'argent des uns et des autres et étale celui qui lui plaît; et même quelquefois ceux à qui il a pris ces sommes en sont exclus. J'avais honneur de lui ainsi abuser de son despote; mais il fallait me conformer à ce qui ne dépendait pas de moi de changer. Tout ce que je faisais c'était de prévenir ceux qui venaient me parler s'il y avait des prétendants qui se fussent présentés pour la même place. Celui donc qui triomphe et qui est étalé. Reçoit un habillement complet de la main du kasnadar et le nouveau gouverneur lui donne10 sequins. Il en est de même de toutes les charges.

Venons à ses appointements. Il a dix sequins par mois de son maître; de sorte que cela, ce que doivent lui donner les gouverneurs lorsqu'ils se libèrent avec le Bey ou qu'on en fait des nouveaux, et ce qu'il peut tirer d'étrenne des grands de la cour, peuvent lui faire 3 à 4.000 livres par an, et, très bien vêtu, il lui serait très facile d'avoir davantage, car on peut dire de sa place comme dit un major d'un régiment français à une dame qui lui demandait combien pouvait porter la place de major: ' autant qu'on fait et qu'on veut la faire valoir '. Répondit cet officier. Ainsi le

Je commençais enfin à entendre un peu la langue arabe et à m'apercevoir qu'il était possible de surmonter les difficultés qui m'avaient d'abord fait craindre de ne pouvoir jamais parvenir à l'apprendre. Pendant ce tems je tâchai de m'instruire de ce que j'aurais à faire à l'avenir. Les jeunes gens me furent d'une grande utilité. Il y en avait parmi eux qui étaient auprès du Bey depuis longtemps et qui avaient presque la connaissance de tous les devoirs du kasnadar. Et. Comme ils languissaient que je fusse en place afin de n'être plus exposés aux mauvais traitements de celui que je devais remplacer, ils se prêtaient avec plaisir à tout ce qui pouvait le plus tôt me rendre leur chef. Je ne devais attendre aucun éclaircissement du renégat. Il était très bien instruit de ce qui devait lui arriver; ce qui faisait qu'il avait pour moi une haine qui se manifestait à tout moment. J'aurais bien pu m'en plaindre au bey, mais, comme je savais que tout devait changer, je prenais patience. Cependant ce dernier n'ignorait de rien, et mon silence ne servit qu'à lui donner meilleure opinion de moi et à m'accorder plus de confiance.

Le tems de camp arrive enfin[1]. Mon maître voulut m'en instruire lui-même, quoique je le susse déjà par la voie des pages. C'est là (me dit-il) que tu peux prendre mieux connaissance de mes affaires qu'en toute autre part. j'espère que tu t'y prêteras afin que je puisse te les confier entièrement avant que nous ne rentrions dans la ville. Il semblait encore d'après cela que tout tournait en ma faveur et m'annonçait un bonheur assuré, si l'idée de la servitude

1 - le Bey sort tous les ans avec une armée pour aller parcourir le pays dont il est le despote, et ramasser les sommes imposées. Ce camp dure trois mois et commence toujours dans le commencement de juin.

ne m'eût fait envisager que rien ne peut être stable pendant qu'on ne peut disposer de soi. Quand je vis les attirails du camp et tout ce qui était à la charge du casnadar, je commençai à m'épouvanter. Il me paraissait impossible que je pusse parvenir à bien remplir une place qui influait sur tant d'objets et d'où émanaient tant de sortes de travail. Je voyais qu'on préparait de quoi charger au moins 150 mules, rien que de ce qui était utile au Bey pendant les quatre mois que dure le camp; (car pour les vivres nécessaires à sa suite et à la troupe, il y avait toujours 3 ou 400 sable. Celui-ci, d'après les connaissances que j'eus de ses devoirs) en route est à cheval à la tête de ce convoi. Il a pour charger et décharger ces mules et sous son commandement une soixantaine de domestiques, qui ont aussi un chef, de sorte qu'en route il n'a rien à faire. Son plus grand ouvrage est la veille et le matin du départ qu'il faut tout préparer et arranger, ce qui lui convient de faire par ses mains afin d'éviter de rien perdre (ce qui m'est arrivé bien souvent du commencement que j'étais en place). Il y a tant de choses dans quatre tentes qui composent ce qui est utile et au Bey et à sa maison, c'est-à-dire à ses domestiques, que de se le représenter il paraît impossible qu'un homme puisse parvenir à avoir l'œil sur tout. Qu'on s'imagine quel serait le train d'un souverain ou d'un grand prince si l'un ou l'autre était obligé de camper pendant quatre mois sans recevoir aucun secours de personne. Qu'on joigne a cela ce qu'il faut de plus à un Bey pour la contrariété des usages. Et on verra si l'occupation d'un kasnadar est de peu d'importance. Au surplus il doit être au camp le dernier couché de toute la maison et le premier levé; il doit savoir l'heure que doit se lever son

des Turcs. Il était (selon que je m'en aperçus pas la suite) rempli d'humanité et d'un très bon caractère. Il joignait à cela des connaissances qui ne sont guère susceptibles aux gens de sa nation, aimant beaucoup les étrangers. Il se laissait emportes quelquefois par une vivacité qu'il ne pouvait vaincre et qui le rendait souvent coupable de bien des excès. Il était assis sur son lit de justice, qui n'était qu'en étoffes brodées, ainsi que ses habillements. Tout brillait en lui saisissait d'admiration. Les murs de la salle étaient couverts de tapisseries superbes, au dessus desquelles on ne voyait que l'or: c'étaient des fusils, des pistolets, des cimetières de plusieurs façons. Où l'or et l'argent étaient entièrement prodigués. La cour qui l'entourait n'était guère moins brillante. Enfin tout ce qui s'offrait à mes yeux m'avait si tellement ravi qu'à peine pouvais-je répondre aux questions du bey, que ma vue avait semblé réjouir. Il me demanda en langue franque de quel pays j'était et quel était mon état (quoiqu'il le sùt très bien). Après ma réponse, il parut encore plus satisfait. Il continua de me demander si je ne parlais aucune autre langue que la mienne et l'espagnol; et à peine lui eus-je répondu que je parlais italien, que je vis un homme qui à peine pouvait retenir sa joie.' Eh bien (me dit-il en bon italien, puisque tu parles cette langue, nous n'en parlerons jamais d'autres; et c'est aussi celle que je préfère. J'ai été (continua-t-il) longtemps en Italie et surtout à livorne. J'ai bien été à Marseille et à plusieurs autres ports de France mais je n'ai jamais pu rien apprendre de cette langue '. Ma surprise devenait toujours plus grande en voyant de la manière que me recevait le Dey et encore de ce qu'il se servait si bien d'une langue si opposée à la sienne. Enfin, après m'avoir

fait plusieurs autres questions, il ordonna à un de ses chaouz[1] de me conduire dans l'appartement de ses pages chrétiens et dem'y donner la place qui me conviendrait mieux.

Je ne fus pas plutôt dans cette chambre que je fus entouré des chrétiens (ils étaient tous catalans ou mayorquais- le plus vieux n'avait pas seulement 15ans) qui y étaient et me témoignèrent une joie qui m'étonna. Ils ne tardèrent point de me dire ce qui les faisait se réjouir de mon arrivée. ' Il y a longtemps, me dirent-il, que le Bey vous attend et qu'il se réjouit d'avoir un français pour le faire son kasnadar[2] et mettre dehors celui qu'il a; c'est un renégat qui le vole impunément et qui traite ses domestiques comme des nègres '.

Tout ce que me disaient ces jeunes gens était une énigme pour moi et ne servait qu'à m'étonner davantage. Qu'est-ce que tout ceci, disais-je, Où est cette barbarie et cette inhumanité que presque toute l'Europe attribue au peuple de qui je dépens à présent, Ne serait-ce que envers moi qu'il serait

Le discours du Bey me surprit plus que tout ce qui m'était arrivé jusques alors. Je ne pouvais concevoir comment. Du premier abord. Il pouvait me témoigner tant de bontés; mais je connus très bien par la suite que c'était son intérêt d'avoir une personne capable de diriger ses affaires et à laquelle il pût se fier.

1- Ce sont ceux qui font justice comme font les bourreaux en France et qui néanmoins sont au nombre des plus grands du pays, étant respectés du peuple comme le Bey même.

2- C'est un trésorier et en même temps un maître d'hôtel.

Elle sont toutes fort étroites et très malpropres; les maisons très basses et mal bâties. Le palais même du Dey n'offre rien qui attire la vue. Enfin plus on la parcourt plus on la trouve défectueuse.

Nous passâmes après de l'autre côté de cette montagne pour entrer dans la Mitigi. Ce fut pour lors que l'aspect de ce pays me saisit d'admiration. Cette plaine est d'une étendue immense et même à perte de vue du levant au couchant. Elle est des plus fertiles et des mieux cultivées de la Barbarie. Elle n'offre enfin rien à la vue qu'un seul jardin dans lequel sont éparses un grand nombre de très belles maisons. C'est dans cette plaine que l'on tire une quantité d'oranges et de citrons inouïe et d'un très bon goût. Du côté du midi, au pied d'une montagne, on découvre la ville de Bellida,qui, étant nouvellement bâtie, offre une vue des plus charmantes. Cette qui est du côté opposé et sur une et sur autre montagne n'offre rien moins d'agréable. Enfin, pendant les 8 ou 9 heures que nous mîmes pour traverser une partie de cette plaine, je ne voyais à chaque pas que des choses plus intéressantes, qui me donnaient une opinion avantageuse de tout le pays. Des montagnes de deux jours de chemin succédèrent à ces perfections et nous arrivâmes à la plaine de Miliana, qui n'offre, ainsi que les autres que nous passâmes, rien de bien intéressant. On n'y voit ni jardins ni maisons, ni arbres même. On n'y découvre qu'une grande étendue de terrain semé d'un très beau bled. Celle de Miliana fournit beaucoup de riz et on y voit une quantité d'adouars[1] ne

1- Ce sont les villages de ce pays-la et dont les maison sont des tentes noires qui résistent à tous les mauvais temps. Elles forment un grand cercle dans lequel on enferme la nuit les bestiaux d'un chacun. On distingue la tente du chef de l'adouar

m'étonna pas moins que tout ce que j'avais vu dans ce voyage c'était. Lorsque nous arrivions dans ces douars. Mes conducteurs faisaient tuer dans chacun de ceux que nous nous arrêtions et plusieurs poulets et menaient comme des nègres ceux qui s'y opposaient. Je n'entendais point la langue et ainsi je ne pouvais m'opposer à ces injustices, quoiqu'ils se servissent de mon nom pour les commettre. Je ne savais point non plus l'usage barbare de ce pays qui, en facilitant les voyageurs à faire leur chemin sans aucune dépense, la porte quelquefois à des excès de cruauté, surtout lorsque. Ce sont des gens attachés au souverain. Ainsi mes compagnons de voyage ne manquaient pas de m'annoncer pour chrétien du Bey de Mascara afin pouvoir mieux exécuter ce qu'ils désiraient, et à ce seul nom du Bey tout leur devenait facile. J'arrive enfin, après six jours de marche, à Mascara et auprès d'un maître qui, selon son lukil, devait me rendre le plus heureux des esclaves. Comme il était tard, on ne put me présenter devant lui que le lendemain: en attendant on me mit au porche, où sont quelques esclaves destinés aux travaux du bey, mais qui sont bien mieux traités que ceux d'Alger. Le lendemain donc je fus présenté devant ce sultan. A son aspect et à la magnificence de sa coupe (c'est la salle où il reçoit sa cour) tous mes sens furent si surpris que je savais à peine si j'existais ou non. C'était un homme de 40 à 15 ans, d'une belle figure, ayant une barbe noire qui le faisait paraître très blanc et qui lui descendait jusqu'au milieu de la poitrine et des moustaches qui lui tombaient sur les épaules, à l'usage

par son élévation de plus que les autres. Par le moyen des chameaux et des boeufs on change en un moment ces villages et on les place où en veut. On bâtit si peu en barbarie que deux ou trois maisons jointes prend le nom de ville.

que m'avait faites le juif, qui, ne sachant pour quel usage il voulait m'acheter, ne se réjouissait guère que je lui parlasse en particulier, craignant que, sachant que je n'avais aucun métier, il ne m'achetât point, à moins que ce ne fusse à un bas prix.

Les réponses que j'avais faites au juif et qui l'avaient obligé à chercher à me vendre ne déplurent point au contraire, d'autant plus qu'elles étaient conformes à ce qu'il désirait, ce qui l'obligea aussi à me dire fort doucement et en bon espagnol: ' Tu es ce qu'il me faut. Je vais t'acheter à quelque prix que ce soit et tu peux dire que tu seras heureux '. Il s'approche en même tems du juif et lui dit que s'il ne voulait point exiger un grand prix, il m'achèterait.

Ils convinrent enfin que moyennant 100 sequins j'appartiendrais à l'ambassadeur.

J'appartins à un nouveau maître, à la maison duquel je fus tout de suite conduit et où il ne tarda pas à se rendre.

Aussitôt qu'il fut arrivé, il ordonna à ses domestiques de m'aller acheter d'autres habillements et me tint, à moi ce langage: ' Ce n'est point moi, me dit-il, que je t'ai acheté. C'est pour le Bey de Mascara mon maître. Si tu sais te bien comporter auprès de lui, tu peux dire que tu seras le plus heureux des esclaves. C'est lui-même qui m'a chargé de lui acheter un français. Il aime si grande confiance en eux qu'il les préfère sur toutes les autres nations. Il m'a demandé un homme tel que tu l'es. Je crois le bien servir en t'envoyant auprès de lui. Dans deux ou trois jours tu partiras, et tâches de ne point démentir mon opinion '...

Le jour de mon départ pour Mascara arrive enfin. J'écrivis auparavant à M. D...à Cadix et lui détaillai tout ce qui s'était passé depuis mon départ d'auprès de lui.- Il, eut la complaisance de me faire bientôt réponse et une des plus

consolantes; il me marquait, après bien de nouvelles preuves d'amitié et de sensibilité sur mon malheur, qu'il ferait son possible d'adoucir ma captivité et même de m'en sortir, ce qu'il aurait fait sans doute si la mort ne m'eût privé de ce digne bienfaiteur très peu de tems que je fus esclave -. Je n'écrivis point à son épouse. Il semblait que le repentir de mes fautes avait étouffé toute ma passion. J'écrivis aussi à mes chers parents, à V... ainsi qu'à mon ami à livorne, et instruisis les uns et les autres de mes revers et de ma situation.

Je partis donc d'Alger et d'auprès du luquil, qui, ne m'ayant point traité comme un esclave, m'avait comblé de bontés. C'était un homme don't la physionomie prévenait beaucoup à son avantage et don't la blancheur de la barbe jointe à sa vieillesse lui donnait un air des plus vénérables. Je peux ajouter même d'après les plus amples connaissances que je n'eus pas la suite et de ses vertus et de son caractère, que c'était un des plus honnêtes humains que ce siècle peut produire. Je m'éloignai donc de lui accompagner de deux conducteurs. Lorsque nous fûmes au sommet de la montagne au bas de laquelle Alger est bâti, je pus examiner la situation de cette ville. Elle offre une vue des plus charmantes et des plus agréables. La beauté de ses dehors présente un aspect qui délecte la vue pas la quantité de jardins et de maisons de campagne qui sont bâties sur le penchant de cette montagne. Celles qui s'y distinguent le mieux sont celles de MM. Les consuls, qui, construites d'un goût moderne, annoncent celui dont les Européens sont susceptibles. Enfin rien de la vue de cette ville et rien de plus pittoresque que les campagnes et les coteaux fertiles qui en dépendent et qui comblent le regard humain de satisfactions. Mais c'est dommage que son intérieur ne réponde point à tant de perfections. Point de belles rues.

A LACOUR DU BEY DE MASCARA

Tandis que je me livrés ainsi à mes diverses réflexions, nous arrivâmes enfin à Alger et, aussitôt débarqués, nous fûmes conduits au bagne où sont les malheureux esclaves[1]

Jusques au lendemain que nous fûmes au marché – comme animaux. Le Dey s'était emparé des deux petits mousses[2] et le consul français des deux officiers passagers[3]. Quant à moi, je fus vendu à un juif qui parlait un peu la langue franque[4] et qui me dit en me conduisant chez lui que je lui coûtais soixante-dix sequins[5] C'est un argent mort pour moi, me disait-il, mais que. Pourvu que je fusse sage et que je travaillasse bien, il ne se repentirait point de m'avoir acheté. J'avais le coeur si occupé de ce qui venait de se passer et encore plus de ce que le sort m'avait donné un juif pour maître, qu'à peine avais-je fait attention à ce

1- Il y a dans Alger plus de 3000 esclaves tant du Dey que des particuliers. Ceux du Dey qui sont dans différents bagnes, sont très mal traités mal nourris et accablés de travail.

2- Il s'empare ordinairement de tous les enfants dans l'espérance de les gagner dans cet âge puéril, à se faire turcs.

3 - Il y a un traité entre la France et la Régence d'Alger par lequel il est dit que tout français qui serait pris sous un pavillon ennemi de cette régence serait esclave, à moins qu'il n'y fût que passage. Je fis prier le consul de servir de ce même prétexte pour m'affranchir, mais il ne lui fut pas possible, nos papiers d'embarquement démontrant clairement que j'étais attaché au vaisseau, il fut décidé que je serais esclave.

4 - C'est un mélange de l'italien et de l'espagnol, qu'on a peine à entendre.

5 - Le sequin valait pour lors 10 livres, 2 sols 6 deniers de France.

qu'il venait de me dire. Aussitôt arrivés dans sa maison, il me demanda ce que je savais faire. 'Rien, lui dis-je — comment.

Tu n'as point de métier, -non-Tu ne sais point non plus travailler au jardin, _ Non, je ne sais autre chose qu'écrire, voilà quelle a toujours été mon occupation. A quoi lui servait l'écriture. Il aurait mieux aimé que j'eusse été jardinier ou de tout autre état. Enfin (me dit-il) tu ne vaux rien pour moi. Il faut que je te revende: et je crains que si on vient à savoir que tu n'as point de métier de ne pouvoir mon argent.

Il y avait peu de tems que le Bey de Mascara[1] avait écrit à son luquil[2]. D'Alger pour le charger de lui acheter quelqu'un qui fût d'un age un peu mûr qui sût lire et écrire.

Ce Bey avait beaucoup de confiance pour les français; il en avait eu un pendant qu'il était calife duquel il tràs content; il mourut à son service et le regretta beaucoup- . Cet ambassadeur ayant donc su qu'il y avait des français dans la prise qui était arrivée s'empresse de s'informer où ils étaient passés. Il sut bientôt que de trois qu'on avait pris, il n'y en avait eu qu'un d'esclave et que c'était un juif qui l'avait acheté. D'après cet éclaircissement, il se transporta chez mon maître et lui demanda où était le français qu'il avait acheté.

Le voilà, lui répondit le juif en me présentant, et si vous voulez, je vous le revendrai. Volontiers, dit le luquil, pourvu qu'il fasse mon affaire. En même tems ce dernier me prit en particulier pour me faire les mêmes questions

1- C'est une ville à environ 80 lieues d'Alger du côté du couchant. Le pois que commande ce Bey s'étend jusqu' aux confins du Maroc.

2 - C'est un ambassadeur, ou consul.

jeté sur les côtes, ou peut-être s'étant trouvées sableuses, notre naufrage aurait été moins funeste que l'esclavitude. Nous n'étions dans notre tartane que 13 personnes, parmi lesquelles il y avait deux passagers malades[1] et deux petits mousses. Nous n'avions ni pierriers, de sorte qu'il nous était impossible de résister à deux corsaires bien armés qui composaient plus de 80 personnes. Les voilà enfin sur nous, nous appellent à l'obéissance, et, voyant que nous ne nous préparions à aucune, ils tâchèrent de nous aborder, ce qu'ils firent malgré la grosse mer, qui leur fui pendant un assez long tems un obstacle. Trente hommes entrèrent dans notre bord, s'emparèrent de nous et nous firent passer dans un de leurs navires où nous fûmes à fond de cale (2 avril 1779).

La prise que venaient de faire ces algériens était moins grande que ne l'attendait leur cupidité. Un d'entre eux, parlant bon espagnol, me le dit et m'assura s'ils l'avaient su, ils l'avaient su ils ne se seraient point! Écartés de leur route, qu'ils allaient à la rencontre d'un gros vaisseau napolitain qui devait sortir (Faisait-il) de Barcelone hier ou avant hier. Quant à nous, nous ne fumons pas aussi maltraités par nos ravisseurs que nous l'aurions cru. Comme ils ne trouvèrent en nous aucune résistance et que par conséquent personne d'eux n'avait été blessé, ils furent assez humains pendant les quatre jours que nous mîmes pour arriver à Alger.

J'eus le tems pendant ces quatre jours de considérer ma situation. Je me voyais dans les fers et éloigné peut-être pour jamais de l'Europe entière et de tout ce qui m'y était cher.

1- C'était deux officiers français de St-Roch.

Mille idées se présent à mon imagination. Ce fut pour lors que je reconnus que je m'étiré la colère céleste et que ce n'était que mes crimes qui m'avaient conduit dans le déplorable état où j'étais. ' Le ciel est juste, disais-je, et sa justice se manifeste en ce moment. Il a puni le plus ingrat et le plus indigne des hommes. Si j'eusse au moins été captivé avant de m'être rendu coupable envers mon cousin, que je serais heureux! Je n'aurais rien à me reprocher et je pourrais accuser le Sort d'injustice en me donnant des fers. Mais à qui attribuer mes adversités qu'à mes forfaits, qu'a moi-même et enfin q'a une justice que j'ai si bien méritée.

MEMOIRES DE THEDENAT

...Je partis pour ce fatal voyant, n'ayant pour toute cargaison que quelques tonneaux de malaga. Nous eûmes assez beau temps pendant cinq à six jours et il ne nous était encore arrivé de remarquable; mais lorsque nous étions déjà près des côtes de catalogne, il se leva un vent du côté du midi d'une force terrible. La mer grossissait à chaque moment et ses syllons nous prenant de côté chassaient tout le monde de dessus le pont. Nous avions toujours cottoyé jusques alors, mais nous ne pûmes plus le faire, crainte que la force du vent et des grands courants de l'eau ne nous eût jeté sur les cûtes, où nous aurions trouvé une mort certaine; ce qui nous obligea au gagner au gagner au large en faisant du chemin tant qu'il était possible, de manière que nous fumes bientôt au milieu du golfe de leon. Ce fut là où nous commençâmes d'apercevoir deux vaisseaux qui nous semblaient cingler du côté où nous venions. La grosse mer ne nous permettait de peu de lumière, nous assurait qu'ils étaient français. Ces deux corsaires algériens, qui nous poursuivaient il y avait déjà longtemps, sans que nous nous en fussions aperçus, usèrent d'une feinte qui leur réussit très bien. Ils cinglaient toujours du côté du nord afin de nous mieux tromper et aussitôt qu'ils furent à la hauteur de notre tartane, ils prirent le vent en poupe et fondirent sur nous à pleine voile. Nous aperçûmes de toutes ces manoeuvres, mais lorsqu'il ne fut plus tems et que nous étions presque sous la portée des canons de ces pirates. Si le chef de notre vaisseau les eût reconnus pour corsaires du premier moment que nous les vîmes, il nous aurait été possible d'échapper d'entre leurs mains. Nous pouvions prendre le vent en poupe comme eux, et, au moyen de l'avance considérable que nous avions, nous nous serions

MEMOIRES DE THEDENAT
Natif d'Uzès en Langedoc
Écrites à Zurich en 1785



... تيدنا هو التاجر.. الأسير.. العبد..الوزير في بلاط الباي محمد الكبير بمعسكر..وصاحب هذه المذكرات الثرية بالمعلومات التاريخية التي تضاهي المعلومات التي تركها عن الجزائر كثير من الرحالة والأسرى الأوروبيين أمثال الدكتور شو، وبايسونال وبريس، وخيمينيث، وفانتير دي بارادي، وهايدو، ديفونتين، والقس بواري، وتاسكا، ودي تاسي، وغيرهم كثيرون.

... إذن وقع تيدنا في قبضة البحارة الجزائريين عام 1779 حيث قال: أخيراً وصلنا إلى الجزائر العاصمة، وأخذونا إلى السجن حيث يوجد العبيد المساكين، بعدها أخذنا رجال إلى السوق وباعونا مثلما تباع الحيوانات، أما أنا فقد اشتراني يهودي. وحينما وصلنا إلى منزله سألني عما أجيد عمله

- قلت له: لا شيء

- قال: ألا تعرف أيضا العمل في البستان؟

أجبته: لا، لا أعرف شيئا آخر غير الكتابة، وهو العمل الذي شغلته دائما.

- قال: وماذا تنفع الكتابة؟...

المؤلف



ردمك ٩ -